صحفيون معاصرون

لمحات من نشأتهم وكفاحهم





- إحسان عبد القدوس
- جلال الحمامصي
- علي ومصطفى أمين
- فكري أباظة
- كامل الشناوي
- محمد التابعي
- محمد زكي عبد القادر
- يوسف السباعي

تأليف

عباس خضر



الناشر

دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع

عمارة رمسيس ـ ميدان رمسيس (باب الحديد) القاهرة



المكتبة الثقافية
(٣)

صحفيون معاصرون

لمحات من نشأتهم وكفاحهم

بقلم

عباس خضر

تقديم

ماهر نسيم

الناشر



للنشر والطبع والتوزيع
عمارة رمسيس - ميدان رمسيس - القاهرة

تقــــديم وتعليق

بقلم

ماهر نسيم

يسعدنى ، كل السعادة ، أن أقدم الى القراء العرب الكرام هذا الكتاب الذى يضم بين صفحاته سير حيـاة تسعة من الصحفيين المعـاصرين المرموقين ، هم ـ حسب الترتيب الهجـائى : احسان عبد القدوس ، جلال الحمامصى ، على ومصطفى أمين ، فكرى أباظة ، كامل الشناوى ، محمد التابعى ، محمد زكى عبد القادر ، يوسف السباعى ...

ولئن كنت لا أستطيع أن أزعم أننى أعرف من دقائق حياة كل واحـد من هؤلاء الصحفيين المرموقين التسـعة ما يؤكده الصـديق الأستاذ عباس خضر مؤلف هـذا الكتاب ، فاننى ـ على الأقل ـ أستطيع أن أؤكد أن « الخطوط العريضة » لحياة كل واحد منهم ـ على النحو الذى أورده المؤلف ـ صحيحة وصادقة الى أبعد حد ، فقـد أسعدنى الحظ أن أعمل ـ فى خلال السنوات العشرين الماضية ـ مع هؤلاء الصحفيين جميعا ما عدا الأسـتاذ يوسف السباعى الذى أعتبره « كاتبا أديبا » أكثر منه « صحفيا » ..

ولست بمستطيع أن أزعم أن عملى مع هؤلاء الصحفيين المرموقين ـ فى خلال السنوات العشرين الماضية ـ قد أتاح لى فرصة تحليل شخصياتهم جميعا تحليلا دقيقـا صـادقا يسمح لى بأن أناقش كل ما قاله عنهم الصديق الأستاذ عباس خضر مناقشة « موضوعية » خالصة ، فلست أعرف ، مثلا ، عن الأستاذين محمد التابعى ومحمد زكى عبد القادر أكثر مما يعرفه أى قارئ لم يسعده الحظ بالعمل معهما ، فقد كانت العـلائق التى تربطنى بهما عـلائق « سطحية »

و « عادية » لا تعدو مجرد « الزمالة » فى العمل ، على حين أن العلائق التى تربطنى مثلا بالأساتذة :جلال الحمامصى، واحسان عبدالقدوس، وكامل الشناوى ، تسمح لى بأن أعرف من شئون كل واحد منهم ما يتيح لى فرصة القاء مزيد من الضوء على شخصياتهم ... كذلك كانت الفترة التى عملت فى أثنائها مع الأستاذين على أمين ومصطفى أمين كافيــة لأن ألمس ، عن قرب ، شتى العوامــل والمؤثرات التى جعلت منهما صحفيين مجددين رائدين ... أما الفترات المتقطعة التى قضيتها فى حضرة و « مجالس » الأستاذ فكرى أباظة ، فقد كانت من الثراء والمتعة بحيث جعلتنى أقف على كوامن نفســه ، أو هكذا أريد أن أخدع نفسى ، على الأقل !..

ومهما يكن من أمر ، فان هؤلاء الصحفيين التسعة جميعا قد بلغوا شأوا بعيدا فى ميدان الصحافة ، وتخرج على أيديهم عدد كبير من الصحفيين اللامعين الذين يتولون الآن رئاسة تحرير معظم الصحف والمجلات العربية المعاصرة ، ومن ثم حق لهم أن ننشر سير حياتهم على الملأ حتى يترسم الصحفيون الناشئون خطاهم .

ولئن كنت مقتنعا ـ كل الاقتناع ـ بأن هذا الكتاب الذى يضم سير حياة هؤلاء الصحفيين المرموقين لا يحتاج الى تقديم ألقى بوساطته مزيدا من الضوء على شخصياتهم ، فاننى ، على الأقل ، مقتنع بأن الأدوار القيادية التى لعبوها فى الميدان الصحفى تستأهل مزيدا من الدراسة والبحث ، بل لعلى لا أكون مبالغا اذا قلت ان فى وسع المؤرخين للصحافة العربية المعاصرة أن يخصصوا كتابا قائما بذاته لكل واحــد منهم ... بل أكثر من ذلك كله ، أنه بات من واجب أمثال هؤلاء المؤرخين ـ وهم كثيرون والحمد لله ـ أن يفعلوا ذلك حتى لا تضيع معالم الكفاح الفذ والصراع المرير فى حياة كل واحد من هؤلاء الصحفيين المرموقين ...

كذلك كنت أود أن تتسع صفحات الكتاب حتى تضم سير حياة صحفيين مرموقين آخرين أذكر منهم على سبيل المثال ، لا الحصر ، الأساتذة : عباس محمود العقاد ، طه حسين ، أحمد قاسم جوده ، محمد حسنين هيكل ، صالح جودت ، أحمد الصاوى محمد ، أحمد بهاء الدين ، حلمى سلام ، أنيس منصور ، وطاهر الطناحى ، وكثيرين غير أولئك وهؤلاء ممن عبدوا الطريق أمام الصحافة العربية الحديثة ٠

ولست ، فى ذلك ، ألقى اللوم على الصديق المؤلف الأستاذ عباس خضر ، فهو قد كتب عن أولئك الذين عاشرهم عن كثب ، ولست أشك فى أنه سوف يستكمل جهده بالكتابة عن الصحفيين المرموقين الآخرين فى المستقبل القريب ، ان شاء الله ٠٠

* * *

ولا يفوتنى فى هذا الصدد ، وأنا أكتب هذا التقديم ، أن أشير الى نقطة هامة جديرة بالبحث تطل برأسها من بين سطور كل صفحة من صفحات هذا الكتاب ، هذه النقطة بالذات هى ما يوحى به المؤلف للقارىء من أن « الصحافة » موهبة فحسب ، وأن جميع أولئك الذين حملوا مشاعل الصحافة ورسالتها « موهوبون » بالفطرة ، وأن موهبتهم ولدت معهم ونمت وترعرعت على مر الزمن !

ولئن بدا هذا «الايحاء» من جانب المؤلف صادقا فى «جوهره» ، فانه ليس صادقا على الاطلاق ٠٠٠ فالصحافة ليست « موهبة » فحسب ، بل هى صناعة أيضا ٠ وليس ثمة شك فى أن جانب « الصناعة » فيها أقوى من جانب الموهبة ٠ ومن ثم يحزننى ، كما يحزن جميع أولئك الذين ينظرون الى الأشياء نظرة موضوعية ، أن يسىء بعض الصحفيين الكبار مفهوم الصحافة ومضمونها ٠ فأولئك الذين يزيفون مفهوم الصحافة ، يجعلون منها اما « فنا قدسيا » لا يهبط وحيه الا على قلة من الموهوبين يزعمون أنهم أوتوا من الذكاء والالهام والقدرة ما لم يؤته كل من لم يشتغل بالصحافة ، واما

« رسالة عليا » لا يبلغها الا من اختصهم الله - دون سواهم - بهذه الرسالة •

ولا شك أن هذا فهم مخطىء للصحافة •

فالصحافة ليست « فنا قدسيا » لا يهبط وحيه الا على قلة من الموهوبين أوتوا من الذكاء والالهام قدرة لم يؤتها كل من لم يشتغل بالصحافة •

وانما هى وسيلة عادية من شتى وسائل الاتصال ••• شأنها فى ذلك شأن الراديو أو السينما أو الخطاب البريدى أو الخطبة تلقى فى المسجد أو الموعظة تلقى فى الكنيسة أو الكتاب أو التليفون !

الصحافة بمعناها القديم وبمعناها الحديث أيضا ، هى تحقيق الاتصال بين الناس عن طريق رواية الأحداث التى تقع فى بلادنا وبلاد العالم الأخرى، ورواية ما يراه حكامنا وشعبنا وحكام وشعوب البلاد الأخرى فى هذه الأحداث ، وعن طريق فتح مغاليق العقل البشرى بشرح فتوحات العلم الحديث والاكتشافات الحديثة ، وعن طريق تحقيق الرابطة الانسانية بين بنى البشر أجمعين بالتقريب بين عاداتهم وثقافاتهم وتقاليدهم ونظمهم ، وعن طريق التخفيف من أعباء الحياة بالقصة المسلية أو الدعابة الحلوة أو الخبر الطريف ، وعن طريق تثقيف العقول بالقاء مزيد من الضوء على ما يستعصى على عقل الفرد العادى من مشاكل سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ، وعن طريق تنشيط الذهن الانسانى باستثارة ملكاته ومواهبه وقدراته الابتكارية ، وعن طريق الارتقاء بالأفراد ودفعهم الى أن يحيوا حياة أفضل وأكرم بانتشالهم من وهدة أوهامهم وخرافاتهم وخزعبلاتهم ومخاوفهم التى يصنعونها بأيديهم ، وعن طريق جعل الأفراد يحيون حياتهم كاملة لا مبتسرة ولا جزئية بتمكينهم من الكشف عن حقيقة أنفسهم وتجريد الحياة من كل ما يحيط بها من زيف وكذب وتضليل ••

ان الصحافة ، باختصار ، هى المرادف الشعبى للثقافة ... موهبة وصناعة ! !

وليست الصحافة « رسالة عليا » لا يبلغها الا من اختصهم الله بهذه الرسالة ، وانما هى مهنة كشتى المهن الأخرى سواء بسواء .. يستطيع أن يمارسها كل من يشغل نفسه بها ويدرس قواعدها ، شأنها فى ذلك شأن أية حرفة أو صناعة أخرى ، فلا فرق من حيث الفهم الواقعى بين الصحفى والمهندس ، أو الصحفى والطبيب ، أو الصحفى والكاتب !..

* * *

وعلى ضوء هذا الفهم الواقعى لمهنة الصحافة ، وهو فهم يجرد الصحافة من الزخرف والبهرج والأضواء الكاذبة وشتى ضروب الافتعال والتمويه ، ينبغى أن يحدد موقفها من الشعب وموقف الشعب منها ، شأنها فى ذلك شأن أية حرفة أو مهنة ، وخاصة أن الصحافة ـ كمهنة ـ تتخذ من الشعب المادة الخام التى تصوغ منها صناعتها .

فالصحافة ـ كمهنة أو صناعة أو حرفة ـ تنطبق عليها كل القواعد والمقاييس والأوضاع التى تتحكم فى أية سلعة من السلع التى يحفل بها السوق ، وتعتمد على الشعب ، كما يعتمد عليها الشعب .

- فهى تقدم للناس فى شكل صحيفة يومية أو مجلة أسبوعية أو مجلة شهرية تطرح فى السوق ويشتريها من يدفع ثمنها .
- وهى تخضع فى السوق لكل ما تخضع له أية سلعة أخرى ، من قواعد « العرض » و « الطلب » ..
- وهى تحقق للمشتغلين بها أرباحا شأنها فى ذلك شأن أية سلعة أخرى ..

- وهى تظهر فى الأسواق أو تختفى وفقا لمدى ما تحققه من نجاح أو فشل ، شأنها فى ذلك شأن أية سلعة أخرى ٠

- وهى تبدو جيدة الصنع أو رديئته ، وفقا لمدى ما ينفق فيها من جهد أو مال وما تعتمد عليه من وسائل الانتاج ، شأنها فى ذلك شأن أية سلعة أخرى ٠

انها سلعة كأية سلعة أخرى تحفل بها الأسواق سواء بسواء ، ولا شىء أكثر ولا أقل من ذلك ٠

لكن الفارق الوحيد بين الصحافة وشتى السلع الأخرى هو أن سلعة الصحافة تفرض نفسها أحيانا على المستهلكين فرضا ، بحكم كونها سلعة أقرب الى أن تكون نادرة ولكنها فى الوقت نفسه ضرورية ، ومن ثم لا تخضع فى بعض الأحيان لقواعد العرض والطلب ٠٠ فالمستهلك الذى قد يسىء الظن بسلعة الصحافة ، مهما اختلفت أشكالها وألوانها ، لا يستطيع أن يستغنى عنها استغناء كاملا ، لأن القارىء لا يستطيع أن ينزع نفسه عن العالم الذى يعيش فيه ، ومن ثم لا يستطيع أن يضرب عن قراءة الصحف ٠

ومن هنا كانت خطورة الصحافة كمهنة أو حرفة أو صناعة ، وبالتالى كسلعة تطرح فى السوق ليشتريها المستهلك ٠٠ ولعل هذا هو السبب الأساسى الذى جعل بعضا من الصحفيين يتطرفون فى فهم مضمون الصحافة ، فلا يضعونها مستوية فوق قدميها ، وانما يرسمون لها ـ ارضاء لأنفسهم وتكريما لمهنتهم ـ صورة مقلوبة ، تجعل الصحافة تبدو أمام أولئك الذين ينظرون اليها نظرة موضوعية، واقفة على رأسها لا على قدميها ، حين يصورونها على أساس أنها « رسالة قدسية » لا يحملها الا أولئك الذين اختصهم الله ـ دون سواهم ـ بهذه الرسالة !!

وأخشى ما أخشاه أن ينساق بعض المؤرخين للصحافة وبعض

كبار الصحفيين فى هذا التيار فيفعلون بالصحافة ما فعله «الجامدون» من رجال الدين بالدين !.. فكلنا يعرف مثلا أن القدسية المتعنتة الزائفة التى استغلها بعض المغرقين فى « تجميد » الدين ، هى التى شنقت وقتلت وأعدمت أولئك الذين نادوا مثلا بكروية الأرض أو دورانها حول الشمس وأولئك الذين حاولوا أن يدرسوا علم وظائف الأعضاء والدورة الدموية وكانوا طلائع رجال الطب .

أخشى ما أخشاه ، أن يمعن بعض الصحفيين فى مخادعة أنفسهم وخداع الناس ، فتصبح الصحافة حربا على النظرة الموضوعية الى الأشياء والأحكام الموضوعية على مشاكل الناس ، وخاصة أن بعض الصحفيين الذين لم ينضجوا النضج الكافى يتخذون من أسطورة « قدسية » الصحافة ، وأسطورة « الرسالة العليا » التى تضطلع بها الصحافة ، وسيلة لتخدير الناس وادخال مفاهيم هابطة على حياتنا الاجتماعية وفرض مقاييس مخطئة على السذج والبسطاء من أفراد الشعب الذين لا يملكون الا أن « يستهلكوا » السلعة الصحفية مهما كانت جيدة أو رديئة ومهما كانت سليمة أو زائفة ..

هذا على حين أن الفهم السليم الصحيح للصحافة ورسالتها يفرض على القائمين بها والمؤرخين لها أن يدركوا ، دائما وفى كل وقت ، أن هناك مسئوليات خطيرة معينة تقع على كاهل الصحافة ..

◆ والمسئولية الأولى ، هى أن تقف أمام الشعب مستوية فوق قدميها لا فوق رأسها ! أى أن تفصح عن نفسها افصاحا صادقا مخلصا لا أثر فيه للوهم أو الاغراق فى الفهم ، كاشفة عن حقيقتها وهدفها ومضمونها ، أى أن تصور للشعب تصويرا صادقا يتمثل فى الافصاح عن كونها وسيلة عادية من وسائل الاتصال الأخرى ، فلا تدعى التفوق على غيرها من هذه الوسائل ، ولا تخلع على نفسها قدسية ليست من صفاتها ، ولا تخدع الناس بزينتها وبهارجها والمساحيق التى تطلى بها وجهها ، عن حقيقة تقاطيعها وشكلها .

المسئولية الأولى ، هى أن تقف الصحافة أمام الشعب مستوية فوق قدميها لا فوق رأسها ، حتى يتحرر الشعب من تلك الأوهام التى تجعله يحجم عن محاسبة الصحافة أو مناقشتها ..

◆ والمسئولية الثانيـة ، هى أن تصحح الصحافة فهمها للشعب بحيث يكون الاطار الذى يحتوى صورة الشعب مفهوما للصحافة ، وبحيث يتحدد موقف الصحافة من الشعب أيضا .

ويجب أن تفهم الصحافة أن الشعب ليس تابعا لها ، وانما هى التابعة للشعب . يجب أن تفهم الصحافة أنه ليس صحيحا ما تزعمه من أنها هى التى تصنع الشعب ، وانما الصحيح أن الشعب هـو الذى يصنع الصحافة ! ويجب أن يكون مفهوما للصحافة أنه ليس صحيحا ما تزعمه من أنها هى التى تصنع الرأى العام ، وانما الصحيح أن الرأى العام هو الذى يصنع الصحافة ..

غير أن هـذا لا يعنى أنه ينبغى للصـحافة أن تكون ميسـايرة لنزوات بعض قطاعات الشعب ، وأن تكون مجرد آلة تصوير تنقل الصورة التى تراها فى بعض هذه القطاعات . وانما أردت أن أشير الى أنه يتحتم على الصحافة أن تفهم وتقدر وتدرك مصالح الشعب وحقوقه ، وأن تعرف أن رسالة الصحافة الأساسية هى خدمة هذا الشعب ممثلا فى غالبيته العظمى .

◆ والمسئولية الثالثة ، هى أن تدرك الصحافة ـ بعـد تصـحيح موقفها من الشعب ، وبعـد فهم موقف الشعب منهـا ـ أنهـا هى والشعب جسـد واحـد يوزع الدم فى شتى شرايينه وعروقه قلب واحد ، هو خدمة الشعب ومصالح الشعب وحقوق الشعب وتطوير الشعب . وعلى ذلك يتحتم على الصحافة أن تحمى الشعب ممثلا فى غالبيته العظمى من بعض قطاعات الشعب التى لا تنفعـل بانفعالات الشعب أو تتمثله فى وجدانها ، وبالتـالى يتحتم عليهـا أن تحمى الشعب أيضا من أية قوة متسلطة أو قهرية ـ سواء أكانت هـذه

القوة المتسلطة أو القهرية ممثلة فى جماعة من الجماعات ، أو مبدأ من المبادىء ، أو مذهب من المذاهب ، أو معتقد من المعتقدات - قد تحاول التحكم فى الشعب رغم ارادته أو الانحراف به الى حيث لا يريد ، أو خداعه ، أو العدوان على مصالحه وحقوقه •

◆ والمسئولية الرابعة ، هىأن تدرك الصحافة أن عملية«التجسيد» التي جعلت منها ومن الشعب جسما واحدا ، تفرض عليها أن تصبح الوسيلة الأساسية للتقريب بين هذا الشعب وشعوب العالم الأخرى ، بحيث تصبح الصحافة الأداة التى يستطيع بها هذا الشعب أن يحقق وجوده المشترك مع الشعوب الأخرى ، وأن يحقق زمالته المشتركة مع الشعوب الأخرى ، وأن يستمتع بكل ما ينبغى للبشرية جمعاء أن تستمتع به من استقرار وسلام ومحبة وتعاون • ومعنى هذا بلغة أخرى ، أنه يتحتم على الصحافة أن تقوم بوسائلها الخاصة -كأداةمعبرة عنالرأىالعام - بما تقوم به الأجهزةالدبلوماسية التى يفترض أساسا وأصلا أنها نابعة من وجدان الشعب وتعمل على تحقيق أهداف هذا الشعب ، فى المجال الدولى ، وهى أهداف تتمثل أولا وأخيرا فى الحياة الحرة السلمية المتطورة الصاعدة • فالصحافة الراقية هى سفراء الشعب والناطقون باسمه ولسانه خارج الحدود•

انها مسئولية شاقة ودقيقة ، ولكن لا مفر للصحافة منالاضطلاع بها ، والا كانت غير جديرة بأن تكون الناطقة بلسان الشعب والمعبرة عن ارادته والمدافعة عن مصالحه في الداخل وفى الخارج على السواء •

* * *

هذه المسئوليات الأربع قد تضيق وقد تنفرج •• قد تنكمش وقد تتفرع ، ولكنها لا بد أن تقوم ، اذا قدر للصحافة أن تكون صحافة قومية ناجحة جديرة بحمل اسمها • وهى اذ تضيق أو تنكمش ، لا يحق لها - وفقا لما تتحمله من مسئولية ازاء الشعب - أن تقصر دون بلوغ الأهداف الأساسية التى تتطلبها هذه

المسئولية .. ولكنها اذ تنفرج أو تتفرع ، لا يحق لها أيضا ـ وفقا لما تتحمله من مسئولية ازاء الشعب ـ أن تعلو على مشيئة الشعب أو أن تتخذ من وكالتها عن الشعب ذريعة أو وسيلة للاغراق أو الغلو أو المبالغة فى أن تتصور كوكيل ، ما لا يريده الشعب كأصيل ، والا فقدت شرعية تمثيل الشعب وانفصلت عن جذوره ، وعادت مرة أخرى الى تعاليها وسماواتها التى رفعت نفسها اليها دون أن يسندها الشعب ، وسقطت من شاهق مرة أخرى !..

غير أن هذه المسئوليات كلها، سواء ضاقت أو انفرجت، انكمشت أو تفرعت ، لا تخرج فى أساسها وجوهرها ـ مع مراعاة ماقد يتطلبه الضيق أو الانفراج ـ عن ضرورة تحقيق الأهداف التالية :

◆ أولا : تحقيق الاتصال بين الناس ، عن طريق الرواية الصادقة للأحداث التى تقع فى بلادنا وفى بلاد العالم الأخرى ، وما يراه حكامنا وشعبنا ، وحكام وشعوب البلاد الأخرى فى هذه الأحداث.

◆ ثانيا : تحقيق الرابطة الانسانية بين بنى البشر أجمعين ، بالتقريب بين عاداتهم وثقافاتهم ونظمهم .

◆ ثالثا : تثقيف العقول ، بالقاء مزيد من الضوء على ما يستعصى على عقل الفرد العادى من مشاكل سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية .

◆ رابعا : فتح مغاليق العقل البشرى، بشرح فتوحات العلم الحديث والاكتشافات الحديثة .

◆ خامسا : التخفيف من أعباء الحياة ، بالقصة المسلية أو الدعابة الحلوة أو الخبر الطريف .

◆ سادسا : تنشيط الذهن الانسانى ، عن طريق استثارة ملكاته ومواهبه وقدراته الابتكارية .

◆ سابعا : الارتقاء بالأفراد ودفعهم الى أن يحيوا حياة أفضل وأكرم عن طريق انتشالهم من وهدة أوهامهم وخرافاتهم وخزعبلاتهم

ومخاوفهم التى يصنعونها بأيديهم ، وعن طريق جعل الأفراد يحيون حياتهم كاملة لا مبتسرة ولا جزئية بتمكينهم من الكشف عن حقيقة أنفسهم وتجريد الحياة من كل ما يحيط بها من زيف وكذب وتضليل .

* * *

هذه هى الأهداف الأساسية التى ينبغى للصحافة أن تحققها بحكم ما تتحمله من مسئولية ازاء الشعب .. وهى أهداف لا يمكن أن تتحقق على نحو سليم الا اذا تسلح الصحفيون بأخلاق صحفية سليمة .

وليس ثمة شك فى أن « الأخلاق الصحفية » هى التى تحدد مضمون وشكل الصحافة فى أى زمان وفى أى مكان . فالصحفيون - بحكم ما تمليه عليهم أخلاقهم الصحفية - يؤثرون فى المجتمع تأثيرا يصطبغ بما يؤمنون به من مثل وقيم ومبادىء . فاذا كانت هذه القيم والمثل والمبادىء ذوات مستويات خلقية مرتفعة تستهدف الخير العام والصالح العام ، اصطبغ الأثر الذى يتركونه فى المجتمع بصبغة كلها خير . أما اذا كانت القيم والمثل والمبادىء التى يؤمنون بها ذوات مستويات خلقية هابطة ، فان الأثر الذى يتركونه فى المجتمع ، يصطبغ بصبغة يغلب عليها الفساد والشر . ومن هنا ، يمكن الحكم على أى ضرب من ضروب الصحافة ، بمدى ارتفاع أو هبوط المستوى الخلقى لدى الصحفيين الذين يشرفون عليها . كما أن الصحافة الفاسدة هى التى تحمل بسلوكها المنحرف ، المشرعين وقادة الرأى العام على المطالبة بفرض رقابة وقيود عليها ، فى حين أن الصحافة النزيهة تتمتع بحريتها كاملة ، لأن نزاهتها تفرض عليها أن تنأى عن كل مظهر من مظاهر السلوك المنحرف .

فالصحفى الشريف الذى يريد أن يتمتع بحريته كاملة غير منقوصة ، يتحتم عليه أن يبرهن على أنه قادر على صيانة هذه الحرية وحمايتها ، وعدم استغلالها ، أو اساءة استخدامها ، بطريقة من شأنها الاعتداء على حريات الآخرين . ولا يمكن أن يكون الصحفى شريفا ونزيها الا اذا توافرت فيه عدة خصال أهمها :

◆ أولا : الاستقلال فى الرأى استقلالا واعيا يستهدف الخير العام والصالح العام ٠

◆ ثانيا : النزاهة الكاملة المطلقة ، فالصحفى المغرض « سفاح » فى حكم رجال الأخلاق ٠

◆ ثالثا : أمانة النقل ٠٠ فالصحفى الذى يشوه الحقائق أو يبترها أو ينشر ما يتمشى مع مزاجه وهواه الشخصى فحسب ، يخون رسالة الصحافة التى يجب أن تكون قائمة على أساس تحرى الحقيقة والدقة ٠

◆ رابعا : التحرر من الخوف ، فالصحفى الذى يخاف مسئوليته ويخشاها ، أضعف من أن يتصدى لرسالة الصحافة ٠

◆ خامسا : عدم استغلال السلطة أو النفوذ ٠ فالصحفى الذى يستغل سلطته ونفوذه لتحقيق مآربه الشخصية على حساب مصالح الآخرين ، غير جدير بأن يصبح ذا سلطة أو نفوذ ٠

◆ سادسا : الحرص على مصالح المجتمع ، على اعتبار أن المجتمع هو كل الأفراد الذين يتكون منهم هذا المجتمع ٠ فالصحفى الذى لا يحرص على مصالح مجتمعه ، وبالتالى مصالح أفراد هذا المجتمع ممثلين فى غالبيتهم العظمى ، لا يستحق شرف العمل بالصحافة ، لأن من لايحترم مصالح مجتمعه ويحرص عليها ، خائن لهذا المجتمع ٠

◆ سابعا : الدفاع عن مصالح الشعب ٠ فالصحفى الذى لا يتمثل الشعب فى خاطره دائما ، ولا يقيم من نفسه محاميا ومدافعا عن الشعب ، ليس صحفيا ، وانما هو « تاجر كتابة » أو « أجير » حزب أو جماعة لا تنطق بلسان الشعب ، أو صنيعة جماعة لا تمثل الشعب ٠

◆ ثامنا : العدالة ٠٠ فالصحفى الذى لا يؤمن بالعدالة ، لا يمكن أن يكتب رأيا محايدا ٠ والصحفى الذى لا يؤمن بأن العدالة تقتضيه أن يرد الحق الى ذويه ، وأن يعترف بالخطأ ، وأن يتيح لمن يسىء اليهم

عن غير قصد ـ أو عن قصد ـ فرصة الدفاع عن أنفسهم ، ليس عادلا ، ولا يؤتمن على رسالة توجيه الشعب والتحدث بلسانه ٠

◆ تاسعا : « النظافة » الخلقية ٠ فالصحفى الذى يشهر بالناس ويستغل ما يحصل عليه من أنباء أو أسرار تلحق الأذى بالناس ، ليس ذا « أخلاق نظيفة » ولا يؤتمن على أسرار الناس ٠

◆ عاشرا : الثقافة ٠٠ فالصحفى الجاهل يسىء الى الصحافة، ويلحق بالشعب ضررا لعله لا يدرك مدى خطره أو خطورته بسبب جهله أو ضحالة ثقافته ٠

* * *

ولعل خير خاتمة لهذا كله هى أن أنقل بعض « الشروط » التى اشترطت لجنة الأنباء التابعة للأمم المتحدة توافرها فى الصحافة والمشتغلين بها :

◆ أولا : يجب على رجال الصحافة أن يبذلوا كل ما فى وسعهم لتزويد الجمهور بالأنباء الصحفية المطابقة للحوادث التى وقعت ، وأن يتحققوا من صحة المعلومات التى يحصلون عليها ، وألا يغفلوا أى حادث مهم ، أو يشوهوا الوقائع عمدا ٠

◆ ثانيا : تتطلب المزاولة الشريفة للمهنة الصحفية ، الاخلاص للمصلحة العامة ، ولذلك يجب على الصحفيين أن يتجنبوا السعى وراء منفعتهم الشخصية ، أو تأييد المصالح الخاصة المتعارضة مع المصلحة العامة أيا كانت الأسباب والدوافع ٠٠ فالافتراء ، والتشهير المتعمد ، والتهم التى لا تستند الى دليل ، وانتحال أقوال الغير ، كل ذلك يعد أخطاء مهنية خطيرة ٠٠ وخلاص النية ازاء الجمهور ، يعتبر أساسا للصحافة المحترمة الجديرة باسمها ٠ وكل نبأ يتضح كذبه وضرره ، بعد اذاعته ، يجب تصحيحه على الفور طواعية ، كما يجب صياغة الشائعات والأنباء التى تفتقر الى الاثبات فى قالب متسم بطابعها الحقيقى ٠

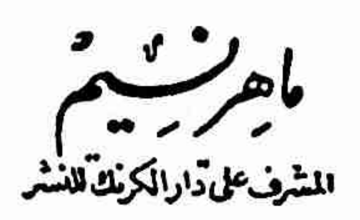
◆ ثالثا : يتحتم على رجال الصحافة ألا يقبلوا لأنفسهم ، أو يكلفوا غيرهم بأعمال لا تتفق مع أمانة المهنة وكرامتها ، ويجب أن تسرى هذه القاعدة على جميع الذين يشتركون فى الأعمال الاقتصادية والتجارية التى تتصل بالمهنة الصحفية .. ولا بد للمشتغلين باذاعة الأنباء وكتابة التعليقات ، أن يتحملوا كامل المسئولية عنها ، ما لم يرفضوا صراحة ومقدما تحمل هذه المسئولية.. ولكل من تمسه تهمة فى أخلاقه أو سمعته ، الحق فى تيسير الرد على هذه التهمة التى قد ترد فى الأنباء أو التعليقات . اذ يجب أن يكون احترام سمعة الناس قاعدة من قواعد المهنة الصحفية . ولا يجوز التعرض لحياتهم الخاصة أو المساس بسمعتهم ، الا اذا اقتضت ذلك المصلحة العامة . ومن واجب الصحفى الاحتفاظ بسرية المصادر التى يستقى منها الأنباء ، اذ أن الأخبار والمعلومات التى تصرح بها بعض المصادر بصفة سرية لرجال الصحافة ، تسرى عليها سرية المهنة الصحفية التى ينبغى الاستمساك بها الى أقصى حدود القانون .

◆ رابعا : يجب على الصحفيين الذين يريدون الكتابة والتعقيب على الحوادث التى تقع فى بلاد غير بلادهم ، أن يحصلوا على معلومات تتيح لهم الكتابة والتعقيب على هذه الحوادث بانصاف وصدق .

◆ خامسا : بمقتضى المبدأ الذى يقوم عليه هذا العهد ، تقع المسئولية فى كفالة احترام المهنة « الصحافة » وشرفها على رجال الصحافة أنفسهم لا على الحكومات ...

* * *

وفى الختام يسعدنى أن أقدم هذا الكتاب للقارىء العربى الكريم حتى يعرف بعضا من أولئك الصحفيين المعاصرين المرموقين الذين يكتبون له ! !





احسان عبد القدوس

فى سطور

■ ولد احسان عبد القدوس فى أول ينـاير سـنة ١٩١٩ ·

■ تخرج فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٢ ·

■ اشتغل فى المحاماة سنة واحدة عقب تخرجه ·

■ تحـول من المحـاماة الى الصـحافة ، اذ اشتـغل بمجلة «روزاليوسف» كمخبر صحفى ، وكان يوقع بعض ما يكتبه بامضاء « سانو » ·

■ ترك « روز اليوسف » بعد سنة واشتغل فى « آخر ساعة » مع الأستاذ محمد التابعى ، وقضى بها سنة واحدة ·

■ عاد الى «روزاليوسف» وتولى رياسة تحريرها سنة١٩٤٥ ، وفى أثناء ذلك اشتغل بدار الهلال ·

■ ترك دار الهـلال وتفـرغ لروز اليوسف بعـد أن زادت الوالدة صاحبة المجلة مرتب ولدها رئيس التحرير ·

■ سجن ثلاث مرات بتهمة العمل على قلب نظام الحكم ·

■ له ٢٠٠ كتاب بين رواية ، ومجموعة قصص قصيرة ·

إحسان عبد القدوس

أول ما فتح عينيه على الدنيا وجد كل شىء يتحداه . . لم يستسلم ، بل راح يقابل التحدى بمثله ، وظل يتحدى ، وما زال يتحدى ، وتكونت شخصيته من التحدّى .

كان الشعب المصرى وقت ولادته سنة ١٩١٩ يتحدى الجيش البريطانى المسلح وهو أعزل إلا من إيمانه بحقه فى الاستقلال والحرية . صنعت له والدته ثوباً من قماش العلم المصرى الأخضر ، وكان هذا أول رمز لكفاح الوليد وتحديه .

عندما ولد « إحسان » كانت والدته السيدة « فاطمة اليوسف » مطلقة من والده الأستاذ محمد عبد القدوس .

وكان هذا أول تحدٍّ له من مصادفات الحياة وتصاريف القـــدر .

وتوالت التحديات . .

لم تستطع الوالدة أن تحتضن طفلها ، لأنها كانت تعمل .. تكد وتكدح فى ظروف قاسية . . . فن التمثيل الذى كانت تزاوله كان فى صراع مع الحياة والمجتمع ، وكان آله يشقون الصخر ليعيشوا .

أخذ الوالد طفله وهو فى سن ثلاثة أشهر ، وعهد به إلى عمتــه التى تقيم مع زوجها فى بيت العائلة الكبير بالعباسية .

كان الطفل ينظر إلى ما حوله حزيناً ، لا يرى أمه إلا لماماً ، والوالد الفنان يعيش فى عالم وحده ، لا يستقر فى مكان ، ولا يثبت على حال . . أحياناً قليلة يكون فى المنزل الكبير ، وأحياناً كثيرة يستأجر شقة فى وسط البلد ، وأحياناً أكثر لا يعرف أحد أين هو .

ولما نزل الطفل إلى الشارع يلعب مع الصبيان ، وعرفوا أن اسمه « إحسان » كانوا يبتسمون له فى حالة المهادنة ، فإذا اشتبكوا راحوا ينشدون ساخرين فى هيئة كورس :

« البنوتة . . . أهو . . أهو . . »

وظل اشتباه الاسم بالأنثى يلاحقه حتى كبر وصار كاتباً يوقع باسمه الكامل ، إذ كانت ترد إليه رسائل القراء معنونة هكذا : « حضرة الآنسة المهذبة إحسان عبد القدوس . . »

وفى مدرسة « السلحدار » الابتدائية قال له الأولاد يعيرونه :

« امك تعمل . . . أمك ممثلة . . . وأبوك ممثل . . »

كانت عمته وزوجها يضربانه لتربيته ، على طريقتهما فى التربية ، ولم يقتنع فيما بينه وبين نفسه بأن نزوله إلى الشارع واللعب مع الأولاد يعتبر جريمة يستحق عليها الضرب . . كان يبكى لا من ألم الضرب ، بل لشعوره بالاضطهاد . . . كان زوج عمته مخلصاً ، فهو يضربه قاصداً تقويمه وتأديبه ، ولكن الصغير « إحسان » يقف أمامه متحدياً يتلقى الضربات دون أن تدمع له عين ، فإذا خلا إلى نفسه بكى . . ثم راح يصر على العناد . . ويفعل ماضرب من أجله .. بل أكثر منه .

كان فكره يسرح . . مامعنى كل هذا ؟... ولماذا هو بعيد عن والديه ؟... إنهما يغمرانه بالحب والحنان ، ولكن ذلك

لا يحدث إلا فى لحظات قصيرة ، هى التى تتيحها ظروفهما ، ظروف الوالدة المطلقة الكادحة ، وظروف الوالد الفنان اللامبالى الذى يعيش على هواه .

كان إحسان يحب السيدات الكبيرات اللاتى يزرن عمته أو تزورهن وهو فى صحبتها ، وكان رقيقاً معهن ، يجلس إلى جوارهن متمسحاً كالقط الأليف . . إنه جائع إلى الحب والحنان . . ومن ذلك العهد راح يبحث عن الحب والحنان .

لم يع شيئاً يذكر عن مدرسة « السلحدار » ، فقد نقله والده إلى مدرسة أهلية صاحبها صديق له ، ولم يتغير الحال ، وكان قد وصل إلى السنة الثالثة الابتدائية... ربما كان ينجح مجاملة لوالده ... ثم اتجه الرأى إلى إلحاقه بمدرسة « خليل أغا » ، وكانت إدارتها ذات صيت وحزم ، فألحقته بالسنة الأولى .

بدأ عهداً جديداً بمدرسة « خليل أغا » ، وكان صراعه مع ما يحيط ومن يحيط به قد اتخذ شكلا آخر من أشكال التحدى . . أراد أن يتحدى الذين أساءوا الظن به ، وقالوا

إنه « مش نافع » وتقدم فى دراسته ، ثم انتقل إلى التعليم الثانوى فى مدرسة « فؤاد الأول » ، وواصل جدّه فى الدراسة ، وظفر بإعجاب مدرسى اللغة العربية فى الإنشاء . . . كان المدرس يقول لتلاميذ الفصل إنه يريد منهم « إحساناً » مثل « إحسان » . . ولكنه كان ضعيفاً فى القواعد ، وفى دروس الدين ، لم يكن يلتفت إليها ، كان يجلس فى آخر الفصل ليقرأ شيئاً آخر ، والمدرس يغضى عنه ، لأنه « شاطر فى الإنشا » . . وكان ينجح فى الرياضيات بالنهاية الصغرى .

ماذا كان يقرأ ؟ . . روايات « روكامبول » و « أرسين لوبين » ، كان يستغرق فى هذه الروايات البوليسية استغراقاً تاماً ، وكان يرتعد من حوادثها ، حتى لا يستطيع أن يقرأ منفرداً . . ففى المنزل يدعو الخادمة لتجلس إلى جواره وهو يقرأ ليلا . . وكان يُضرب لقراءته هذه الروايات ، فيزداد عناداً فى قراءتها .

ويخرج إلى الصحراء المجاورة للمنزل فى « العباسية » ، ويتأمل القمر فيخيل إليه أن القمر إنسان يبكى . . . فيبكى !

وهو لا يدرى لماذا يبكى القمر ، ولكنه يدرى لماذا يبكى هو .. يشكو إلى القمر كل ما يحيط به من تحدّ . . فيقول له القمر بسطوعه وثباته فى السماء : « هأنذا أتحدى كل شىء . . أقاوم الظلام وأبعث إلى الناس الضياء .. ألا تفعل مثلى ؟ »

ويرد :

— وماذا أفعل ؟ !

— ابحث عن نفسك فى أى شىء . .

ويروح يبحث عن أى شىء . . إنه فى المرحلة الرومانسية التى يقولون إن كل شاب يمر بها . قرأ « المنفلوطى » فى « العبرات » و«النظرات» ، و«الروايات» ، وقلد والده فى نظم الأزجال وتأليف المسرحيات ... ألف مسرحية وجمع أولاد الحى وكوّن منهم فرقة ، وكان هو المؤلف والمخرج والفتى الأول . . ووقف يمثل البطل الذى قست عليه حبيبته وهجرته ، ولا بد أن يكون كذلك . . الموقف يستلزم أن يشكو ويبكى ، فشكا وبكى ، ونسى أنه يمثل ، فبكى بكاء

موجعاً ، واندمج فى الدور حتى خرج عن الدور إلى الحقيقة .. حقيقة الطفولة المعذبة .

ومنذ ذلك اليوم لم يفكر فى التمثيل .

إنه يتشبع بالإصرار والتحدى ، ولكنه لا يستطيع أن يواجه الجمهور إلا بالعصبية التى تفسد عليه الموقف . . فلم ينجح كذلك فى المحاماة ، بعد ما تخرج فى كلية الحقوق وقيد فى الجدول . . كان يجيد كتابة المذكرات القضائية ، ولكن عندما وقف أمام القاضى اشتبك معه . . . وعدل عن المحاماة .

وعندما تحمس للوطن المحتل واستغرق فى العمل السياسى لم يواجه الجماهير بالخطابة ، ولم يخرج فى المظاهرات ، بل راح يحرض ويدبر الخطط ، ويكتب المنشورات ، ويعمل بين الطلبة وبين مجلة « روز اليوسف » يبلغ الأخبار وينقل بعض التوجيهات .

و«إحسان» فى تجنبه مواجهة الجماهير أشبه بتوفيق الحكيم. كانا يحضران ندوات نادى القصة عندما كانت مجالس خاصة

ودردشة ، فلما نظمت كندوات عامة يغشاها الجمهور لم يرهما أحد .. وتناقش كتبهما هنا وهناك فلا يحضران المناقشة وتقام حفلة التكريم لتوفيق الحكيم فيفاجأ الحاضرون ببرقية اعتذار منه ، ويتم التكريم غيابياً .

وفى المرحلة الرومانسية كتب « إحسان » شعراً منثوراً : كتب قطعة بعنوان «وجدها» وأرسلها إلى « روزاليوسف » بدون توقيع كأنها من قارىء بعيد . . فنشرت .. ولما علمت الوالدة بعد ذلك بأنه كاتبها ثارت عليه وأنبته . . كانت القطعة تصور رجلا مهموما تائهاً فى أحزانه اهتدى أخيراً إلى « بار » حيث وجدها . . أى وجد الخمر سلوته . . والوالدة تعمل بكل وسيلة على إبعاده عن أسلوب والده فى الحياة، أسلوب اللامبالاة ، كانت تبث فيه روح المسئولية ، وتعمل جاهدة على ألا يكون كوالده فى هذه الناحية .

* * *

وكان أول حب لإحسان فى تلك الفترة ، وكانت سنه إحدى عشرة سنة ، وكانت هى فى مثل سنه . . . أحبها حباً

عظيما أغرقه فى الرومانسية إلى «شوشته» .. وهو الذى أبكاه فى الموقف التمثيلى ، وهو الذى استوحاه فى قطعة «وجدها» وكانت الحبيبة قد تزوجت .

كانت من بنات الجيران ... التقى بها فى زيارات عائلية ، وتقابلا منفردين فى الطريق إلى المدرسة ، وجعل يترك مدرسته ويوصلها فى ترام «الجمامين» إلى مدرستها «السنية» . وكانت أسعد لحظاته هى التى يخلو فيها ديوان الدرجة الأولى بالترام إلا منهما .. فيمسك بيدها وعينه ترقب الكمسارى .

ويستعيد فى رواياته وقصصه كل ما كبت من رغبات وقبلات فى حبه العذرى . . واستمر هذا الحب ست سنوات ، ثم انتهى بزواجها من غيره ، فلم يكن من الممكن أن يتزوج عندما خطبت...قال لى الأستاذ «إحسان» : هذه عقدة كل فتى فى مجتمعنا . . لا يستطيع أن يتزوج التى أحبها فى فترة المراهقة ، لأن الظروف الاجتماعية والمادية تحول دون زواجه ، فى حين تكون الفتاة قد نضجت وتقدم لها رجل آخر مستعد للزواج .

وأفاق « إحسان » من الرومانسية كما أفاق منها عاطفياً ... لم تطل قراءته للمنفلوطى ، إذ كان « توفيق الحكيم » قد ظهر ، وظهر كذلك « محمد التابعى » ، وقد شغف بهما ، فقرأ كل ما كتبه « توفيق الحكيم » بنهمٍ ، وأعجب بأسلوب « التابعى » فقلده فى المقالات الصحفية ، وفى القصص الأولى ، ثم قرأ لطه حسين ، وحاكى أسلوبه فى مقالات نُشرت بروزاليوسف .

وبدأ يقرأ الأدب الانجليزى عقب دخوله كلية الحقوق ، ووقف كثيراً عند « أوسكار وايلد » ، و« برنارد شو » ، ولعله تأثر بأوسكار وايلد فى أدب الجنس ، وتحدِّى المجتمع بالصراحة فى التناول ، ووجد فيه ما أذكى ميله المتأصل إلى التحدى ، فكان موقف المجتمع المصرى المتحفظ منه مثل موقف المجتمع الإنجليزى من « أوسكار وايلد » فى زمنه . والذى يبدو لى أن المواقف التى يخرج فيها « إحسان » عن حد التحفظ ليست جوهرية فى أدبه ، فإنها لو حذفت أو خففت لم يتأثر السياق ولا جوهر الموضوع ، إنما التحدى النابع من طبيعته ومن حقيقة موقفه الاجتماعى هو آراؤه

فى حرية البنات وحقهن فى الحب ، وفى اختيار الزوج . واهتمامه ببرنارد شو إلى جانب «أوسكار وايلد» يقدم لنا فكرة عن مزجه بين وجهات النظر الاجتماعية وبين المواقف المشتملة على بعض الإثارة .

إن الأفكار التقدمية التى يواجه بها المجتمع المتحفظ ، وتعبيره عنها بصدق وحرارة ، من أسرار الجاذبية التى تشد إليه جماهير القراء .

والحقيقة التى أجتهد فى أن أقررها هى أن الظروف التى نشأ فيها «إحسان» أصّلت فى نفسه روح التحدى . ولحسن الحظ وجدت هذه الروح مجالها ، إما فى الوطنية والسياسة، وإما فى تصوير النواحى الاجتماعية ، وبث الأفكار التى تغضب الذين يريدون أن يغضوا أبصارهم عن هذه النواحى ويصموا آذانهم عن سماع تلك الأفكار .

وكان التحدى فى مجال السياسة والوطنية ، لا بالكتابة والحملات الصحفية وحدها ، بل كذلك بالمشاركة فى الخطط الثورية ، وتدبير خطط الاغتيال السياسى فى العهد الماضى .

وقد آوى « حسين توفيق » قاتل « أمين عثمان » فى منزله ، وكانت مجلة «روزاليوسف» وكراً لمختلف الثوريين فى الفترة التى سبقت قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، على اختلاف ألوانهم . قال لى الأستاذ « إحسان » : إنه مال إلى الشيوعية فى وقت من الأوقات ، ولكن الذى عصمه منها هو الحب.. الحب الذى يدين به فى كل شىء ، والذى ظل حياته يبحث ويكتب عنه ويدعو إليه ؛ نفر من فكرة التناحر بين الطبقات وكراهية بعض المواطنين لبعض .

والحب قصة طويلة فى حياة إحسان عبد القدوس . . . بدأ يحب « الستات الكبار » وهو طفل ، لأنهن كوالدته التى أحبها طول حياته ، ثم تطور الحب الطفولى إلى الحب العذرى عندما وقع فى حب « بنت الجيران » ... شعر بثقب فى قلبه منذ حرم من هذه الفتاة ، فراح يخوض بعد ذلك مغامرات وإن كانت متنوعة إلا أن نوعاً واحداً منها لم يقبل عليه ، وهو الذى ينفصل فيه الجنس عن العاطفة .

جال على البلاجات ، وأمعن فى جولاته حتى كاد

يضيع . . نشأت علاقة حادة — من مختلف النواحى — بينه وبين راقصة فى الخامسة والثلاثين من عمرها ، جعلته يهمل فى استعداده لامتحان الشهادة الثانوية فرسب ، وكان له ملحق ، وحبسته الراقصة فى منزلها بالأسكندرية ثلاثة أشهر ، ولكنه هرب منها عندما تبين له مايشرف عليه من الضياع ، واستعاد ما فاته فى الدراسة .

وعندما أحب الحب الاستقرارى الأخير كان قد تخرج فى كلية الحقوق ، واتجه بكل رغبته إلى الزواج ... كان مما شدّه إليها ولم يفلته ، رعايتها له ، واهتمامها به كما تهتم الأم بابنها . كان الاتصال عن طريق الزيارات العائلية ، وهى من إحدى أسر «العباسية» ، من الطبقة المتوسطة الكبيرة... قدمها إلى والدته على أنها حبيبته وخطيبته . . فرحبت بها ، ولكنها حذرته من عدم موافقة أهلها ، وفعلا عارضوا . . فهو لا يزال شاباً فقيراً محامياً فى فترة التمرين ، أو صحفياً ناشئاً . . أو قل غير ناشىء . لم يكن مقنعاً لهم على أى حال . ولكنهما تزوجا برغم هذه المعارضة ، وصار هو أكبر من

مقنع . . وقد اختارها غير عاملة ، وأصر على أن تكون ربة بيت .

كتب أخيراً يقول :

« نشأت مع عمتى فى بيئة محافظة تضم موظفين وتجاراً . . ولم تكن المرأة فى هذه البيئة تعمل . . والتلميذ الوحيد فى مدرستى الذى تعمل أمه هو أنا . . بل كان العمل بالنسبة للمرأة فى هذه البيئة ، يعتبر مهانة وذلة . . .

« ونشأت متأثراً بهذه البيئة . . ولم أكن أشعر من ناحية أمى بالمهانة والذلة ، فقد كان حبى لها يحمينى من هذا الإحساس . . ولكنى كنت أشعر أنها سيدة شاذة . . حالة استثنائية . . وكنت أعانى من إحساس دائم ، بأنى محتاج للدفاع عنها أمام أولاد الحى ، وأمام زملائى فى المدرسة . . إحساس والدته البيئة التى أعيش فيها والتى لا تؤمن بأن من حق المرأة أن تعمل . . .

« ثم كبرت ، وانتقلت من البيئة التى عشت فيها إلى المجتمع الذى تعيش فيه أمى ، وبدأت أعمل معها . . بدأت أكتب آرائى . . وكانت آراء أشبه بآراء « الشيخ الغزالى » . . كنت

أطالب بأن تبقى المرأة فى البيت . . وكنت أقول إن عمل البيت ـ تربية الأولاد ومساعدة الزوج ـ هو عمل كامل يستغرق كل وقت المرأة . . وهو عمل يحتاج إلى المرأة أكثر من حاجة أى عمل آخر . . وكان غاية ما أطالب به من حقوق للمرأة ، هو حقها فى اختيار زوجها . . حق الحب . . وكل مقالاتى وقصصى — وأبرزها قصة « أنا حرة » — كانت تعبر عن كل هذه الآراء . .

« وكانت والدتى ـ رحمها الله ـ تضايقها منى آرائى . . وتعارضنى فيها . . وتساجلنى على صفحات المجلة . . إلى أن كتبت مرة أقول إن « مدام كورى » مكتشفة الراديوم لا تصلح مثلا للمرأة ، لأنها مخلوقة شاذة أشبه بعجل ذى رأسين . . وثارت يومها والدتى ثورة كبيرة ، واتهمتنى بالرجعية . . وتركتنى أكتب دون أن ترد علىّ . . اتهمتنى بالجنون . ولكن آرائى كانت تتطور تلقائياً . .

« كان المجتمع الجديد الذى أصبحت أعيش فيه ، قد بدأ يشكل لى آراء جديدة . . وبدأت شخصية والدتى تبهرنى

أكثر . . قـــوة شخصيتها . . إرادتها . . حزمها . . استقلالها الكامل .. رأسها المرفوع .. اعتزازها بنفسها .. وبدأت أفهم حنانها كأم . . ورقتها كسيدة . . إن فيها حناناً ، ورقة ، وجمالا أكثر صدقاً ، ووعياً ، وقوةً ، من حنان كثير من الأمهات المتفرغات لتربية أولادهن . . وهى تجيد الطهو . . وتجيد رعاية البيت . . إن العمل لم يفقدها شيئاً من واجباتها المنزلية كسيدة . .

« وبدأ يبهرنى المجتمع الذى تتساوى فيه المرأة والرجل .. إنه أرقى خلقاً . . ليس الجنس هو كل شىء فيه ، كما كنت أشعر فى المجتمعات التى تعزل بين المرأة والرجل . . المجتمع المختلط يذيب وقاحة الجنس ، كما تذيب الاشتراكية وقاحة الفوارق الطبقية . . والآراء الفكرية هنا . . فى هذا المجتمع . . تتطور أسرع ، والعمل ينمو أسرع . . .

« وبدأت أتساءل : هل صحيح أن أعمال البيت وتربية الأولاد ، تستغرق كل وقت المرأة . . وأن أى عمل آخر يكون على حساب بيتها وأولادها ؟ . ولكن ، لماذا

لا يستغرق عمل الرجل كل وقته ؟ إنه يعمل سبع ساعات فقط ، وباقى الوقت يمزقه على المقهى وسهراته . . .

« ولو افترضنا أن العمل الرئيسى للمرأة هو البيت فإنه لا يستغرق أكثر من السبع ساعات التى يقضيها الرجل فى عمله . . والباقى . . إنها تقضيه فى فراغ . . فى محادثات تليفونية . . فى زيارات تافهة . . وخير لها أن تعمل . . ومع ذلك . . فإن عمل البيت ، بما فيه تربية الأولاد لا يستغرق سبع ساعات . . يستغرق أقل . . وأكثر من ذلك أن فراغ المرأة فى البيت ، يجعلها تلقى بكل ثقل وقتها الفارغ على أولادها .. تدللهن . . وتضعف . . لأنها تصبح فى هذه الحالة ، أكثر حاجة إلى أولادها من حاجة أولادها إليها . . حاجتها إليهم ليملأوا فراغ وقتها . . و . . .

« ثم اتسع المجتمع أمامى أكثر . . بدأت وأنا جالس فى مكتبى ألتقى بكل المجتمعات . . وأستقبل فئات من المجتمع الآخر الذى تركته .. المجتمع الذى لا يسمح للمرأة بالعمل ..

فإذا بكل الضحايا من هذا المجتمع .. البنات الضحايا .. كل الحائرات وكل المخدوعات ، وكل الضعيفات فى هـــذا المجتمع .. وكن قد نلن — خلال السنوات الطويلة — حق الحب .. حق اختيار الرجل .. ولكنهن لم يسعدن بهذا الحب .. ولم يستطعن حمايته .. وبدأت أقتنع بأن الحب وحده لا يكفى ضماناً للمرأة .. يجب أن تكون هناك قوة تحمى هذا الحب .. قوة الشخصية .. قوة الاستقلال الاقتصادى .. ولاسبيل لهذه القوة ، وهذا الاستقلال .. إلا بالعمل ...

« وأصبحت آرائى التى أدعو لها ، تطالب بحق المرأة فى العمل .. بل أصبحت «الروشتة» الرئيسية التى أوصى بها كل فتاة معذبة تأتى لتشكو إلىّ عذابها ، هى أن تعمل .. حتى لو لم تكن بحاجة إلى العمل .. إن العمل ليس استقلالا اقتصادياً للمرأة فحسب ، بل هو حماية لها من الفراغ .. والفراغ هو العدو الأكبر لكل البنات ...

« هكذا تطورت .. وتطور معى أبناء الحى الذى نشأت

فيه . . إن أغلبية بنات «العباسية» الآن . . يعملن . . بنات الأمهات اللائى لم يؤمنّ بحقهن فى العمل ولم يطالبن به » .

* * *

ولعلنى لا أبعد عن الحقيقة إذا أضفت إلى هذا التحليل المعقول حقيقةً نفسيةً — كما يبدو لى — هى أن بعده عن أمه فى طفولته وحرمانه منها ، وتفكيره فى السبب الذى ينحصر فى أنها تعمل ، بل كذلك ما لا بد منه من تعيير بعض الأولاد له فى ذلك المجتمع الجامد القديم ؛ كل ذلك رسّب فى أعماقه شعوراً بأن عمل المرأة يؤدى إلى مثل هذه الحالة التى عاناها ، ثم كان التطور فى المجتمع ، وفى فهمه لوالدته ، وفى رأيه على نحو ماحدثنا به فى الكلمة السابقة .

* * *

ونستطيع أن نلمس كثيراً من ملامح النشأة الأولى لإحسان فى قصصه ، وخاصةً قصة « أنا حرة » وقد تقمص فيها شخصية البنت المتمردة على الأوضاع المحيطة بها فى بيت عمتها ، وقد اقتضى الكمال الفنى للقصة تحويل الفتى إلى فتاة ،

إذ وفر لها الموضوعية ، وأبعدها عن التأثر بذات الكاتب واحتمال بروزه فى السياق .

وتمثل « نوال » فى قصة « فى بيتنا رجل » شخصية البنت التى أحبها حباً عذرياً ، وفى هذه الشخصية كذلك ملامح من خطيبته التى شملته بالرعاية والحنان . والقصة فى عمومها تعبر عن تجربته فى مجـــال السياسة والوطنية واتصاله بالمنظمات الثورية .

وقد صوّر فى قصة « الوسادة الخالية » عقدة الشباب التى مر بها فى حبه الأول من حيث إخفاقه فى الحصول على الحبيبة وزواجها من غيره .

وصب قلقه فى نشأته وبحثه عن نفسه فى شخصية « أحمد » بقصته « لا تطفىء الشمس » وكذلك تصويره لغضب « أحمد » المتكرر ، وسخطه على زملائه ورؤسائه فى الوظيفة ، لأنهم كانوا دائماً ينظرون إليه على أنه ابن أخت وكيل الوزارة ، ذلك أن « إحسان » فى واقع حياته كان يثور ويغضب عندما يقال عنـــه أو يعرف أنه ابن محمد عبد القدوس ، أو

« روز اليوسف » . كان يريد أن يُقدِّم بشخصه .

ولا شك أن تجارب الحياة هى الكنز الذى يستمد منه الكاتب الصادق ، ويختلف كاتب عن كاتب فى كيفية استغلالها . والكاتب البارع حقاً هو الذى يستطيع أن يذيب تجاربه بحيث يصوغ منها صوراً أخرى ، ويخلق من شخصيته وشخصيات الآخرين خلقاً جديداً ، ويجعل لهذه وتلك دلالات موضوعية ، وكذلك فعل الأستاذ « إحسان عبد القدوس » .





جلال الحمامصى

فى سطور

- ولد جلال الحمامصى فى سنة ١٩١٣ بدمياط .
- تخرج فى كلية الهندسة ، قسم العمارة ، سنة ١٩٣٩ .
- اشتغل بالصحافة منذ كان طالبا بالمدارس الثانوية ، ففى سنة ١٩٢٩ بدأ العمل هاويا بجريدة كوكب الشرق .
- فى سنة ١٩٣٦ اشتغل محررا بمرتب فى دار الهلال .
- اشتغل محررا بجريدة المصرى سنة ١٩٣٨ وتولى سكرتيرية التحرير بها سنة ١٩٣٩ .
- طبق الفن الهندسى فى تنظيم صفحات « المصرى » ، فجعل الصفحة ثمانية أنهر بدلا من سبعة ، وبذلك أدخل الرقم المزدوج فى عدد أنهر الصفحات بالصحف المصرية كالمتبع فى صحف العالم .
- انتخب عضوا بمجلس النواب سنة ١٩٤٢ .
- ترك جريدة المصرى سنة ١٩٤٢ ، وخرج من الوفد مع مكرم عبيد ، واشترك معه فى وضع « الكتاب الأسود » الذى تضمن فضائح زعماء الوفد ، وعندما رأى مكرم عبيد يتقرب الى النحاس سنة ١٩٤٦ ترك حزب مكرم « الكتلة الوفدية » .
- أنشأ مجلة « الأسبوع » سنة ١٩٤٦ واستمرت سبعة أشهر .
- عمل رئيس تحرير لجريدة « الزمان » من سنة ١٩٤٧ الى سنة ١٩٥٠ .
- انضم الى دار « أخبار اليوم » سنة ١٩٥٠ ، ولما صدرت « الأخبار » سنة ١٩٥٢ كان أحد رؤساء تحريرها .
- ترك « الأخبار » وعمل رئيس تحرير لجريدة «الجمهورية» سنة ١٩٥٤ .
- تولى ادارة وكالة أنباء الشرق الأوسط فى سنة ١٩٥٩ .
- عاد الى الأخبار (رئيس تحرير) سنة ١٩٥٩ .

جلال الحمامصي

حينما كانت تجرى حوادث سنة ١٩١٩ فى القاهرة والأقاليم كان « جلال الحمامصى » طفلا فى السادسة من عمره يعيش مع أهله فى البلد الذى ولد به وهو « دمياط » . كانت المدينة كما كان كثير من البلاد المصرية مسرحاً لفظائع الإنجليز الذين أرعبتهم هبّة البلاد للمطالبة بحريتها واستقلالها ، فركبوا رءوسهم ، وانتشر جنودهم فى الشوارع كالكلاب المسعورة . . كان يهول الطفل «جلال» منظر اعتداء الجنود على الأهالى ، ويشعر بالكراهية والاشمئزاز لذوى الوجوه الحمر ، والسحن النكراء ، وهم يدبون بحوافر خيلهم على أرض الوطن .

وكان سروره عظيما حينما رأى جموع الناس تستقبل « حامد العلايلى » عائداً من منفاه فى مالطة ، تسودهم الحماسة والإصرار على أحد الأمرين : الاستقلال التام ، أو الموت الزؤام .

كان يرى كل ذلك ، ثم يقصه على والده ، ويصف له تفاصيله فى أسى ونشوة .. وكان يشعر بشعور غامض .. لا يتبين منه إلا أنه يريد أن يروى ويصف.. ويريد أن ينطلق.

ويتضح الشعور الغامض بعض الشيء حينما يلتقى بالطفلين التوأمين : « مصطفى أمين » ، وأخيه « على » ، وكان والدهما محامياً بدمياط ، ويقرأ كل منهم ما على وجـــه الآخر من قلق ورغبة ملحة فى كتابة الأخبار ونقلها إلى الناس .. كانوا يشعرون أن هذه هى وسيلتهم فى التعبير ، ورسالتهم فى الحياة .

ووضع الأطفال الثلاثة مشروع مجـــلة يصدرونها فى « دمياط » .. وراحوا يطوفون بالمدينة ليجمعوا الاكتتاب حتى يحصلوا على المال اللازم لإصدار المجـلة ، ولـكنهم كانوا فى « دمياط » .. حيث لا يندفع الناس إلى بذل المال بالسهولة التى كانوا يتوقعونها .. وكان الناس يرونهم أطفالا أشبه بمن يشترون لعبة ، منهم بمن يصلحون لإصدار مجلة .. فأعطاهم من أعطى قروشاً وملاليم . .

ولجأوا إلى وسيلة أخرى لجمع المال . . . وأقاموا حفلة تمثيلية يخصص إيرادها للمجلة ، مثلوا فيها هم وأصدقاؤهم وزملاؤهم تلاميذ المدرسة الإبتدائية ، ولكنهم خسروا القروش التى جمعوها أولاً ، مضافاً إليها ما ادخروه من مصروفاتهم الخاصة ، لما كلفتهم الحفلة من إقامة سرادق وغيره ، ولأن أهالى « دمياط » كانوا يتفرجون من ثقوب السرادق . . !

وكانت «القاهرة» حلم « جلال » ... القاهرة مقر « سعد زغلول » وقيادة الحركة الوطنية .. التى تصدر فيها الصحف والمجلات . . وكان يعلم أنهم سيرحلون إليها عند إتمامه الدراسة الابتدائية ، فلم تكن فى «دمياط» مدرسة ثانوية ، وكان سروره عظيما بإعلان الدستور ، إذ علم أن والده سيرشح فى الانتخابات ، وسيتبع ذلك أن يكون عضواً بمجلس النواب ، وأن يقيموا بالقاهرة .

✡ ✡ ✡

وانتقلت الأسرة إلى القاهرة وهو فى السنة الثالثة الابتدائية ، والتحق بمدرسة «الناصرية» الابتدائية ، وحصل منها على الشهادة الابتدائية ، ثم التحق بالسعيدية الثانوية .

وفى مرحلة الدراسة الثانوية بدأ العمل فى الصحافة ، واشتغل بالسياسة ، وكان « زبوناً » دائماً للدور الثانى فى الامتحانات .

كان من زعماء الطلبة فى «السعيدية» ، وفصل منها فى وزارة « إسماعيل صدقى » ، وكان فى الثالثة الثانوية ، وذهب إلى « الجامعة الأمريكية » ، والتقى هناك بمصطفى وعلى اللذين فصلا من مدرسة « الخديو إسماعيل » .

وما إن وضع رجله فى « الجامعة الأمريكية » حتى قام على رأس الطلبة بمظاهرة وطنية كبيرة تحدثت عنها الصحف ، وأسرتها له إدارة « الجامعة الأمريكية » حتى جاء آخر العام وفصلته بحجة أنه سيئ السلوك .

وعاد فى أول العام التالى إلى المدرسة « السعيدية » ، ومنها حصل على شهادة الدراسة الثانوية .

وكان « جلال » قوياً فى الرياضة ، وله ميل خاص إلى الهندسة ، والأستاذ « جلال الحمامصى » مهندس منذ صغره ، عقليته رياضية ، ومزاجه هندسى ، حتى فى كتابته . . أفكاره لها أبعاد مضبوطة ، وألفاظه مرتبة على طريقة :

« ١ + ١ = ٢ »

كتب وهو طالب فى «الجامعة الأمريكية» موضوع إنشاء كان عنوانه « وصف شارع عماد الدين » ، وكان المدرس هو الأديب المعروف المرحوم « صادق عنبر » . . ومع أن هذا الأديب كان معروفاً بكتابته ذات الأسلوب الجزل المنمق فإنه التفت التفاتاً خاصاً إلى موضوع الطالب «جلال الحمامصى » ، وأبدى إعجابه بمضمونه وبطريقة كتابته . فقد قسم « جلال » شارع « عماد الدين » إلى قسمين . . قسم شعبى يعمل بالنهار وينام بالليل ، وقسم آخر يحوى عالماً آخر . . هو عالم المسارح والصالات الذى يسهر الليل كله . . ويعربد فيه جنود الإنجليز حوافر البشرية .

قسم الشارع تقسيما هندسياً نفذته بعد ذلك الحكومة ،

فأسمت القسم الأول « شارع محمـــد فريد » والثانى « عماد الدين » فكان هذا مما يسمى فى الأدب « توارد الخواطر » بين المهندس الصغير الطالب والمهندس الكبير الحكومى .

وأحب « جلال » وهو طالب بكلية الهندسة ، ولكن العقلية الهندسية والتفكير الدمياطى العملى وقفا الحب عند حدوده . . رآها فى رأس البر فأحبها ، وفكر فى الزواج منها ، وكان قد اشتغل بالصحافة ورسم مستقبله رسماً صحفياً . . واختار كلية الهندسة لكى يستطيع السير فى الدراسة بسهولة ، لأن الهندسة هى المادة اليسيرة عليه ، وكان يريد أن يرضى والده بإتمام دراسته الجامعية ، ولكنه لا يريد أن يتعب نفسه ويربكها بدراسة أخرى كالحقوق أو الآداب أو غيرهما ، مما يشغله عن السير فى خط الصحافة بانتظام . . واختار قسم العمارة ، وابتعد عن غيره من أقسام الهندسة حتى لا يكون مفتشاً للرى مثلا .

ونعود إلى الحب والزواج : لقد قال فى نفسه :

« كيف أتزوج وأنا الآن أعيش فى كنف والدى لا أكسب شيئاً ...حتى العمل الصحفى الذى أعمله إنما أقوم به هاوياً بدون أجر . . وحتى إذا كان لى مرتب فى الصحافة فها هى ذى الصحف يقفلها « إسماعيل صدقى » واحدةً وراء أخرى ، فإذا أقفلت الجريدة التى أعمل بها فماذا أصنع ؟ »

واستمر يقول لنفسه : « وقد تضطرنى أعباء الحياة الزوجية إلى الوظيفة الحكومية فتكون الكارثة التى تقضى على آمالى فى الصحافة ...

« إذن لا داعى لهذا الحب الذى يريد أن يجرنى إلى الزواج ، وفى متعة الشباب متسع » .

ومن رأى الأستاذ « الحمامصى » الذى يبنيه على تجاربه أن الإنسان لا بد أن يمر بمتع الحياة كلها فى شبابه حتى يخبرها وتكون بمثابة تحصين له فيما بعد . وقد مر هو بهذه المتع وانتهى مروره بها قبل الزواج ، وصار منذ ذلك الحين يسير فى خط « هندسى » مستقيم .

وكان الأستاذ « فكرى أباظه » يترك مجالس « الكبار

فى السن » إلى مجالس الشباب . . فكان لجلال معه جولات فى عالم المتع الشبابية . . وكانا يتنهزان الاحتفال بليلة رأس السنة الميلادية ، فيرتادان المجتمعات التى تسهر هذه الليلة وتطفئ الأنوار فى منتصفها . . وذات ليلة قصدا إلى مجلس أنس من تلك المجالس ، فرأى «جلال» والده هناك .. فخجل وتراجع ، ولكن الوالد ناداه وقال له « خذ حريتك » فقد كان يعامله معاملة ديمقراطية ، كما كان يتبع ذلك مع باقى أولاده : يعتبر الواحد منهم صديقاً له .

وكان والده الأستاذ « محمد كامل الحمامصى » أديباً ، وإن يكن قليل الإنتاج ، وكان يكتب بإمضاء « كامل » وكان منزله فى القاهرة — بعد الانتقال إليها من دمياط — ندوة لأصدقائه الأدباء ، ومنهم « محمدالمويلحى » ، و « عبدالعزيز البشرى » ، و« أحمدشوقى» ، و « حافظ إبراهيم » ، و « أحمد حافظ عوض » والشاب « فكرى أباظه » .

وبرغم ذلك لم يتجه جلال إلى الأدب . . لقد كان حقاً معجباً ومعتزاً برؤية هؤلاء الأعلام الكبار فى منزله ،

وأهدى إليه « المويلحى » كتابه « عيسى بن هشام » وقرأه كما قرأ بعض الكتب الأدبية وخاصة كتب «المنفلوطى» ، وقرأ كثيراً من القصص ، ولكن شغله الشاغل كان الصحافة ، كان لا يعنيه من مكتبة الوالد الحافلة بشتى الكتب إلا المجلات والصحف الغربية التى لم يكن يقرؤها فقط ، وإنما كان يتأمل إخراجها وموادها من الناحية الصحفية والهندسية كذلك .

وكان اهتمامه الأكبر موجهاً إلى واحد فقط من أصدقاء الوالد هو « أحمد حافظ عوض » صاحب جريدة « كوكب الشرق » . كان أولا يذهب مع والده إلى زيارته فى الجريدة ، وكان يعتبر هذه الزيارة نزهة ممتعة ، كان يذهب إلى المطبعة ويشم رائحة الورق فيهـــا كأنها عبير الأزهار .

سحرته الحبيبة « صاحبة الجلالة » حتى أصبح واحداً من عبادها المخلصين . . وبدأ يفكر فى تقديم القرابين للمعبودة الساحرة . . . ترجم قصصاً قصيرة ودفعها إلى « السادن » العظيم .

ولم يغظ «جلال» شيء كما غاظته ضحكات متبادلة بين والده وبين « حافظ عوض » أثناء الحديث بالتليفون عنه وعن قصصه . . كانا يضحكان من المحاولة الصبيانية متفكهين بالولد العزيز .

وإذن فالمعبودة لم تقبل القرابين ، ولا يزال هو بعد طفلا دون التكليف .

وكان الفتى من أبطال الكرة فى المدرسة « السعيدية » ، وإذا كان قد خسر الجولة الأولى فى ميدان الصحافة فلا بأس . . وليستعد للجولة التالية ، وكتب أخبار الرياضة وأرسلها إلى جريدة «الأهرام» التى كانت تعنى بنشر الأنباء الرياضية ، فنشرتها ، وكسب هذه الجولة ، ثم أفسحت له « كوكب الشرق »، فجعلته محررها الرياضى سنة ١٩٢٩ وسنه إذ ذاك ١٦ سنة .

وكان الوالد أولاً يضحك من محاولات ولده ، ولكن عند ما رأى المسألة تدخل فى دور الجد . . لم يرضه أن يكون ابنه صحفياً ، فقد كانت العائلات التى تعد أبناءها

لكى يكونوا قضاة أو وكلاء نيابة أو . . . . . إلخ ، تنظر إلى الولد الذى يتجه إلى مهنة مثل الصحافة نظرة الحسرة وخيبة الأمل .

يضاف إلى ذلك أن « جلال » كان فى تلك الفترة من « زبائن » الدور الثانى الدائمين . .

وقال رئيس التحرير لابن صديقه المحرر الرياضى : « ولا يهمك » .

وتعهد «جلال» لوالده بأن يجتهد فى الدراسة ولا ينقطع عنها حتى يتم التعليم الجامعى ، ولما التحق بكلية الهندسة جدّ فيها واجتاز امتحاناتها كلها بنجاح فى الدور الأول حتى تخرج .

* * *

وكان « جلال » فى خلال ذلك كله مشتغلا بالسياسة ، وكان وفدياً متحمساً ، وكان من تعاسته أن يرى نفسه الوفدى الوحيد فى الأسرة التى كان رجالها من الأحرار الدستوريين ، وكان دائم الصدام الفكرى السياسى معهم .

وفى سنة ١٩٣٥ كانت الحركة الوطنية فى صراع عنيف مع أعدائها ، وبدأ « جلال » يكتب فى السياسة « بكوكب الشرق » ، وكان قد أشرف على الجريدة « أحمد ماهر » أحد أقطاب الوفد ، وكان « جلال » معجباً بطريقته فى الكتابة ، وبطريقة « عبد القادر حمزة » ، تلك الطريقة التى تقوم على المضمون والتعبير عن الأفكار بأقصر عبارة ، ولا تهتم بالعبارات الطنانة الرنانة ، والشتائم الشخصية التى كان يسرف فيها كتَّاب السياسة الحزبية .

وتأثر « جلال » فى كتابته بتلك الطريقة ، وكان يعجب بأسلوب « التابعى » فى الدعابة والتهكم والسخرية ، ولكنه لم يأخذ به عملياً ، كما فعل «مصطفى» و«على» و«إحسان» مثلا ، لأن هذا الأسلوب يهتم بالتظليل والتلوين والتعريج بالخطوط ، أما تفكير « جلال » الرياضى ومزاجه الهندسى وطريقته فى التنفيذ والأداء ، فتأبى عليه أن يحيد عن الخط المستقيم الذى هو أقصر طريق بين نقطتين : نقطة الانطلاق من نفسه ، ونقطة الوصول إلى الغرض . . ومادام قد قال كلمته ، وعبر

عن رأيه فلا يهمه كيف يكون الوقع ، ولا ماذا يكون الأثر ولو ذهب دخانا فى الهواء .

واتصل الطالب الصحفى « جلال الحمامصى » بالتابعى فى خلال عمله بكوكب الشرق ، وكتب معه فى « روز اليوسف » ثم فى « آخر ساعة » ، وسافر إلى لندن مندوباً عن « آخر ساعة » مع وفد مصر لتوقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وكانت هذه الرحلة على نفقته الخاصة ، كما كان كل العمل الصحفى الذى زاوله حتى الآن (سنة ١٩٣٦) بالمجانية الكاملة ، وكان صاحب « الكوكب » يعتبر نفسه سعيداً جداً بهذا النوع من أبناء الأسر الغنية الذين يهوون الصحافة .. أما المحترفون فكان سخياً معهم فى تقدير المرتب ... التقدير فقط ، وعند الدفع يحلها الحلال ... !!

وأول عمل صحفى تناول عليه « جلال » أجراً كان بدار الهلال فى أواخر سنة ١٩٣٦ بعد عودته من لندن ، فقد دعاه « فكرى أباظه » إلى التحرير فى مجلة « المصور » ، فكان يكتب بها باب الرياضة ، وباباً عن الجامعة ، ويأتى بأحاديث وأخبار سياسية ، وكان المرتب هو عشرة جنيهات فى الشهر .

والواقع أن « جلال الحمامصى » كان يتطلع إلى اليوم الذى يؤجر فيه على عمله فى الصحافة ، ولكن الجو الصحفى فى ذلك الحين كان جواً فقيراً من جهة ، ومن جهة أخرى كان أصحاب الصحف أو بعضهم يستغلون العاملين معهم ليوفروا لأنفسهم ألوانا من الترف أو شيئا من الثراء .

ولم يكن والد « جلال » غنياً بالمعنى الواسع .. إنما كان على شىء من الثراء بحيث يستطيع أن يفيض على أسرته بالتوسع فى الإنفاق .. ولكن أولاده كان لا بد له أن يصنع لهم شيئا أو يصنعوا لأنفسهم مستقبلا فيه كفاح من أجل العيش .

واستمر الأستاذ « جلال الحمامصى » بعد ذلك فى الصحافة محترفاً .. محرراً ، وسكرتير تحرير ، ورئيس تحرير .. وخاض المعامع السياسية كاتباً صحفياً ، ونائباً بمجلس النواب .

وظل فى أعماله وفى حياته « مهندساً » يقيس كل شىء قياساً مضبوطاً ، ويمشى على الخطوط المستقيمة ، لا يعوقه إلا شىء واحد . . هو أن يرى خطاً قد انكسر .



علي أمين



مصطفى أمين

فى سطور

- ولدا سنة ١٩١٤ بمنزل سعد زغلول بالقاهرة ٠
- حصل « على » على بكالوريوس الهندسة من جامعة شفيلد سنة ١٩٣٦ ٠
- حصل « مصطفى » على درجة أستاذ فى العلوم السياسية من احدى الجامعات الأمريكية سنة ١٩٣٨ ٠
- عين « على » سنة ١٩٣٦ مهندسا باليومية فى مصلحة الميكانيكا والكهرباء ، وتدرج فى الوظائف الحكومية ، متنقلا بين الوزارات ، حتى كان المدير العام لمستخدمى الحكومة والمعاشات بوزارة المالية سنة ١٩٤٥ :
- خرج « على » من الوظيفة الحكومية بدخوله مجلس النواب سنة ١٩٤٥ ٠
- كان يعمل بالصحافة وهو موظف ٠٠ فى آخر ساعة ، وفى المصرى .
- انضم « مصطفى » الى أسرة تحرير « روزاليوسف » سنة ١٩٣٠ ، وهو طالب بالجامعة الأمريكية ، ثم عمل فى جريدة « كوكب الشرق » و « الجهاد » ٠ وفى سنة ١٩٣٤ اشترك مع التابعى فى تحرير « آخر ساعة » ثم اشتغل محررا بالمصرى عند انشائها ، ثم ب « الاهرام » سنة ١٩٤٠ ، واختير سنة ١٩٤١ رئيسا لتحرير مجلة « الاثنين » ٠
- انتخب « مصطفى » عضوا بمجلس النواب سنة ١٩٤٥ ٠
- أصدر الأخوان جريدة « أخبار اليوم » الأسبوعية سنة ١٩٤٤ ، ثم اشتريا « آخر ساعة » من التابعى ، وأصدرا مجلة « الجيل الجديد » ، ثم أصدرا جريدة « الأخبار » اليومية سنة ١٩٥٢ ٠

على ومصطفى أمين

لا شك أنك تسمع عن الأطفال المعجونين بماء العفاريت .. بل إنك تراهم أحياناً وتلمس « عفرتتهم » . . . ونحن الآن أمام نوع آخر من الأطفال المعجونين . . ولكن لا بماء العفاريت . . بل بماء الصحافة . .

إنهما « على أمين » وشقيقه « مصطفى » : التوأمان المتحدان — لا المتشابهان — فى الشكل وفى التفكير وفى كل شىء . حتى فى إمساك السيجارة بالفم . . تحدثت معهما معاً فكأنما كنت أحدث شخصاً واحداً .. سأل «على» «مصطفى» عن شىء يتصل بالحديث ، وأجابه «مصطفى» فأحسست كأنهما رجل واحد يحدث نفسه .. وتركنا «مصطفى» إلى مكتبه ، ولحقت به فيه بعد أن قضيت وقتاً مع « على » وحدنا ، وجلست مع « مصطفى » فلم أشعر أن جليسى قد تغير . .

حتى البنت التى أحبها « على » فى طفولته .. أحب أختها « مصطفى » !

عملت معهما فى تحرير « الأخبار » أكثر من سنتين ، وكنت أراهما كل يوم تقريباً ، فلم أستطع أن أفرق بينهما . قلت لمصطفى مرة :

— يا أستاذ على . .

فقال لى : أنا مصطفى . .

وكدت أقول له : كيف عرفت أنك مصطفى ولست علياً ؟ !

رسبا فى الشهادة الابتدائية فى اللغة العربية . لأنهما كتبا موضوع الإنشاء بأسلوب واحد وأفكار واحدة . . ولأن الكتابة كانت فوق مستوى طلاب الشهادة الابتدائية .

ولد الشقيقان التوأمان ونشآ فى « مطبخ الصحافة » . . فى منزل « سعد زغلول » خال والدتهما ، الذى اتخذهما بمثابة ولدين له... كان الزعيم الكبير يهتم بما ينشر فى الصحف عنه

وعن الحركة الوطنية التى يقودها ، وكان الحديث فى مجلسه يدور عن الكاتب فلان ، وما كتب ، والصحيفة الفلانية وما نشرت ، والصغيران التوأمان يستمعان إلى هذا الحديث فتثير انتباههما تلك القوة السحرية العجيبة التى تستأثر باهتمام الزعيم العظيم وصحبه . . قوة الصحافة والصحفيين . .

كان ذلك الجو يقول لهم :

« ما أعظم أن يكون الإنسان صحفياً . . يهتم الناس به وبما يكتب » .

وكانت تأتى إلى « سعد » جميع الصحف والمجلات ، والصغيران ينظران ويتفرجان أولا ، ثم يقرآن ويتأملان الشكل والمضمون . .

وبدأ الصغيران يقرآن الصحف لسعد ، ويلخصان خطبه ، وهو يستمع إليهما ويقرأ لهما ، ويصحح أخطاءهما ، ويبصرهما بما يرى تبصيرهما به .

وعندما كبرا واتصلا بالصحف كانا يأخذان الأخبار من « مطبخ الصحافة » فى بيت الأمة . . حيث

يعرفان ما يجرى هنـــاك وما يدور على ألسنة الزعماء وما يتناقلونه من أنباء ، وتوطدت بطبيعة الحال صلاتهما بهؤلاء الزعماء الذين كانوا لهما أهم مصادر الأخبار .

كانت تلك البيئة التى نشأ فيها عملاقا الصحافة العربية اليوم هى التى غرست فيهما حب الصحافة وعجنتهما بمائها . . أو على الأقل نمت فيهما الميل لها والتعلق بها ، ولا بد أن يكون وراء ذلك طبع مولود .

اشتغلت مع « على » ، فكنت أول ما أقدم عليه وأبدؤه بالتحية . . أقرأ على وجهه ما يقول لى : هات ما عندك من مواد . . وانظر إلى يده التى يمدها وكأنه لا يمدها للمصافحة ، بل كأنه يحركها قائلا : « هات أخبار . . طلع قوام . . مفيش وقت للكلام » .

هذه هى تحية «على» التقليدية . . إنه ينظر إلى القادم إما على أنه زميل أتى بمحصول ، أو على أنه يصلح لأن يستخلص منه محصولا . . أما منْ عدا هذين فليس لدى رجل العمل الكبير وقت له . .

وقد عجبت حينما لقيته أخيراً من أجل هذا الموضوع وأخذت أنا منه « المحصول » على غير العادة . .

أما « مصطفى » فهو أرق من « على » أو أكثر مجاملة .. إنه مثل « على » إنْ لم يكن أشد منه اندماجاً فى العمل الصحفى ، ولكن ذلك عنده لا يمنع من أن يكون لطيفاً رقيقاً مجاملا

ونعود إلى الطفلين التوأمين بعد هذا الاستطراد .

لقد كانت ولادتهما فى منزل «سعدزغلول» يوم ٢١ فبراير سنة ١٩١٤ ، وكان الأول طفلا سميناً ، فى غاية الصحة وهو « على » ، أما الثانى « مصطفى » فيقول بعض الظرفاء إنه تأدب مع أخيه وقال له : « تفضل . . مش ممكن . . لازم تتفضل الأول . . » ولم يرد « على » أن يضيع الوقت فى المجاملات .. فخرج إلى العالم قبل شقيقه ، وتبعه «مصطفى» الرقيق النحيف !

قضى الطفلان الخمس السنوات الأولى من حياتهما فى القاهرة ، وكان لهما إلى جانب والديهما الحقيقيين . . والدان آخران هما : الزعيم « سعد زغلول » ، وزوجته « صفية » :

« أم المصريين » . لم يكن لسعد وزوجته أولاد ، فكان «على» و«مصطفى» لهما بمثابة ولدين ، على أن زوجة الزعيم ، اعتبرت أماً لكل المصريين إذ ذاك .

وكان الوالد الأستاذ « أمين أبو يوسف » محامياً يتنقل بين مكاتبه وقضاياه فى «القاهرة» و«دمياط» و«المنصورة» ، ثم أقام مع أسرته بدمياط فى السنة الخامسة من ولادة «على» و «مصطفى » .

وفى «دمياط» لم تقبل مدرسة البنين الطفلين لصغر سنهما ، وعلمت الأسرة أن مدرسة البنات تقبل البنات اللاتى فى مثل هذه السن . . فألبسوهما مريلتى بنات وربطوا فى شعر كل منهما شريط « فيونكا » وصار « على » اسمه « علية » ! وصار « مصطفى » اسمه « صفية » ! .

والتحقت «علية» و «صفية» بمدرسة البنات .. وقضيا ـ أو قضتا ـ فيها شهوراً بين الزميلات الصغيرات و « الأبلوات » الكبيرات . . حتى كان يوم .. ذهبت فيه « صفية » إلى دورة المياه .. ونسى «مصطفى» أنه «صفية» ..وذعرت البنات وصحن .

« ولد . . ولد . . ولد والنبي يا أبله . . ولد ! »

وعادت « علية » و « صفية » كما كانتا . . « على » و « مصطفى » . . .

ولما بلغا السادسة دخلا مدرسة « دمياط » الابتدائية ، والتقيا فيها بالطفل « جلال الحمامصى » الذى يكبرهما بسنة واحدة ، وأراد الأطفال الثلاثة أن ينشئوا مجلة ، وأرادوا أن يجمعوا لها مالاً من أهل البلد فلم يوفقوا . . على نحو ما فصّلت فى موضوع « جلال الحمامصى » . قال لى « على » : كان جد « جلال الحمامصى » أغنى أهل دمياط ومع ذلك أعطانا قرشاً واحداً ! !

وعادت أسرة الأستاذ « أمين أبو يوسف » إلى الإقامة فى القاهرة ، وألحق « على » و« مصطفى » بمدرسة « المنيرة » الابتدائية فى السنة الثانية .

وفى ذلك الوقت بدأ الطفلان عملهما الصحفى .. فأخرج «مصطفى» مجلة «الحقوق» وأخذ هذا الاسم من مجلة قضائية رآها فى مكتب والده . وأخرج «على» مجلة «الأسد» وكانت «الأسد» تهاجم «الحقوق» و«الحقوق» ترد على «الأسد» . .

وكانت هذه المناوشة الصحفية نوعاً من المنازعات التى كانت تحدث أحياناً بين الشقيقين ، حتى كانا يتضاربان .. فيغضب أهلهما ، ولكنهما يتصالحان عقب التضارب مباشرةً .. ولا يبقى إلا غضب الأهلين ..

وفى الإجازة الصيفية وحّد الزميلان الصغيران جهودهما ، وأصدرا معا مجلة عائلية اسمها « البيان » ، وفى السنة الثالثة الابتدائية أصدرا مجلة الفصل « ثالثة ثالث » . وفى الإجازة الصيفية التالية أصدرا مجلة تنطق باسم الحى ، وكانا يسكنان فى شارع « الدواوين » ، اسمها « المكتشف » .

وكانت كل تلك المجلات تكتب بالقلم الرصاص ..

وكان التطور التالى فى مجلة « التلميذ » التى أصدراها باسم مدرسة « المنيرة » كلها .. إذ طبعاها بمطبعة « البالوظة » وتغير اسم مجلة « التلميذ » إلى « الطالب » وهما فى مدرسة « الأوقاف الملكية » الثانوية ، وفى عدد من مجلة « الطالب » كتب « مصطفى » مقالا قال فيه : « إن الصحافة هى مهنة المستقبل ، وسوف يجىء اليوم الذى يصبح فيه كل الصحفيين

من حملة الدبلومات والشهادات العليا » . وكأنه كان يرد بذلك على الساخرين من زملائه ، والمستنكرين من الأقارب فى ذلك الوقت الذى كان يعد فيه الشاب المتعلق بالصحافة « ولد خسران » .

واستمر الشقيقان فى إصرارهما . . فكرا فى إصدار مجلة عامة لجميع المدارس ، ووجدا مجلة ذات رخصة اسمها « التلميذ » فاتفقا على أن يدفع كل منهم مبلغاً كى يستطيعوا طبعها، فباع كل من «على» و«مصطفى» دراجته ورهن ساعته ، أما صاحب المجلة فقد سرق خروفاً من عزبة والده . . وفى أحد شوارع القاهرة هرب الخروف . ورغم ذلك صدرت المجلة ثم ألغتها الحكومة ، لأنها كانت تهاجمها وتنقد نظم التعليم . . وطبقاً لما كان متبعاً من أن تخرج المجلة أو الجريدة المعطلة باسم آخر ، فقد وجد الشقيقان عند صاحب المطبعة رخصة مجلة اسمها « الأقلام » فأصدراها ، وطبقاً لما كان متبعاً كذلك أغلقت هذه المجلة بعد صدور العدد الثانى .

وكانا لا يزالان يلبسان البنطلون القصير فى سنة ١٩٢٨

عند ما يئسا من إصدار المجلات وأرادا أن يشتغلا فى إحدى الصحف أو المجلات الكبيرة . . «التابعى» رئيس تحرير «روزاليوسف» رفض ، و«القشاشى» صاحب «الصباح» قال لهما : « تعرفوا تكتبوا شعر وتؤلفوا أغانى . . ؟ » .

قالا « لا » قال : « مع السلامة . . . »

وقدما لجبرائيل تقـــلا صاحب « الأهرام » تقريراً من ثلاثين صفحة يتضمن رأيهما واقتراحاتهما فى مجلة « مصر الحديثة » التى كان يصدرها «تقلا» إلى جانب «الأهرام» ، فحظيت سلة المهملات بهذا التقرير .

وفكرا فى السبب الذى يجعل الصحف ترفضهما ، فوجداه ينحصر فى كلمة « عيال » ، فتعرفا بشاب اسمه « حسن » يلبس بنطلوناً طويلا وله شنب .. كانا يكتبان و«حسن» ينشر باسمه فى مجلة « الرغائب » و « روز اليوسف » و « الفكاهة » ولمع اسم « حسن » ولكنهما لاحظا أن بعض المواد التى تقدم إلى «روزاليوسف» لا تنشر ، فطلبا من «حسن» أن يسأل «التابعى» عن السبب ، فرفض ، فكان ذلك نهاية « حسن » الكاتب .

ورأيا مرة فى بيت الأمة الأستاذ « التابعى » ، فطلبا من فراش فى بيت الأمة أن يقدمهما له ، فقدمهما قائلا : « على » و « مصطفى » أولادنا ! وعقب ذلك فى صيف ١٩٣٠ كان « التابعى » فى « رأس البر » ينزل بفندق كبير ، ولكن فى حجرة منزوية . . وكان الشقيقان ينزلان بنفس الفندق فى حجرة مطلة على البحر ، فذهبا إليه وعرضا عليه أن يستبدل حجرتهما بحجرته إكراماً له ، ولكنه رفض شاكراً ، وكان السبب أن الأستاذ « التابعى » يتخذ الحجرة المنزوية عش غرام ! ! وكلماه فى أن يعملا معه بروز اليوسف ، فقال لهما « لما نرجع مصر » وسأله أخوه عنهما فقال : « دول أولاد الشيخ محمود الفراش فى بيت الأمة ! »

واشتغل «مصطفى» محرراً بمجلة «روزاليوسف» سنة ١٩٣١ رغم معارضة الأسرة فى اشتغال ولديهما بالصحافة ، وكان أمل الأسرة فى « على » أكثر ، لأنه كان مجداً فى دراسته ، فأرسلته إلى «انجلترا» ليدرس الهندسة ، وليكون بعيداً عن مغريات الصحافة فى مصر . . ولكن المغريات الصحفية

كانت تنتظره فى « انجلترا » وتلاحقه من مصر .. فقد أرسل وهو بالباخرة فى الطريق إلى أوربا خطاباً إلى « مصطفى » ضمنه بعض خواطره ومشاهداته ، ثم رأى هذا الخطاب منشوراً فى « روز اليوسف » بإمضاء « السندباد البحرى » وفى آخره وعد منه بأنه سيوافى المجلة برسائل أخرى ، فلم ير « السندباد البحرى » بداً من متابعة المراسلة . وفى جامعة «شفيلد» كان يدرس الهندسة ، ويرأس تحرير مجلة الجامعة . وفى «انجلترا» درس الصحافة والطباعة ونظام إخراج الصحف وكان يرسل إلى «مصطفى» تقارير عن الصحافة فى «انجلترا» ، يضمنها آراءه فى تطوير الصحافة المصرية ، وفى سنة ١٩٣١ أرسل إليه نظام إخراج صحيفة أسبوعية ، وهو النظام الذى خرجت به « أخبار اليوم » بعد ذلك ، فعرضه «مصطفى» على «التابعى» لتخرج به « روز اليوسف » فقال التابعى « إن الوقت لم يحن بعد لهذا الإخراج »

واندمج « مصطفى » فى العمل الصحفى بمصر ، ولم تكن الأسرة راضية عن ذلك ، وكان تعيين والده وزيراً مفوضاً

فى «واشنطن» فرصة لإبعاده عن الصحافة ، إذ قرر الوالد أن يصحبه إلى «أمريكا» ليدرس العلوم السياسية ويحصل فيها على شهادة عليا من هناك . ووجد « مصطفى » هذه الدراسة تتصل بالصحافة ، فأقبل عليها وقضى فيها أربع سنوات من سنة ١٩٣٤ إلى ١٩٣٨ ، حتى حصل على الشهادة ، وعاد إلى مصر ليستأنف العمل بالصحافة . . وكان « على » قد عاد من « انجترا » وعين مهندساً فى وزارة الأشغال ، وظل يتابع الكتابة باسم « السندباد البحرى » فى «آخر ساعة»، ثم فى مجلة « الاثنين » حتى خرج من الوظيفة الحكومية سنة ١٩٤٥ ليتفرغ تفرغاً تاماً لأخبار اليوم مع «مصطفى» .

كانت نقطة الخلاف الوحيدة بين « على » و « مصطفى » فى أثناء حياتهما المدرسية التى كانت ممتزجة بحياتهما الصحفية أن «على» يرى أن الدراسة المدرسية هى الأساس ، وأن هواية الصحافة لا ينبغى أن تكون على حساب هذه الدراسة ، أما « مصطفى » فكان يرى العكس . . . وقد ظلا معاً فى المدرسة حتى رسبا فى الشهادة الابتدائية ، وقد اهتم «سعد

زغلول » بمعرفة سبب هذا الرسوب حتى علم باتهامهما بالغش في موضوع الإنشاء ، فكلم في ذلك « على الشمسى » وزير المعارف الذى اقتنع بأنهما ظلما ، لأن أفكارهما في الموضوع جاءت متماثلة . . ولكنه لم يجد حلا إلا أن يدخلا الدور الثانى ويهدى إلى كل منهما قلماً من الذهب جزاء نجاحه . . ونجحا فعلا وظفرا بالهدية . .

وفى التعليم الثانوى تخلف « مصطفى » عن « على » ، وتنقل الاثنان بين مختلف المدارس بسبب الفصل السياسى . وبرغم ذلك حافظ « على » على نجاحه حتى حصل على الشهادة الثانوية قبل « مصطفى » بسنتين ، أما « مصطفى » فكان مهملا فى دراسته ، منصرفاً عنها إلى الصحافة والسياسة ، وقد مر بمدارس القاهرة الثانوية حتى أثبت أنها كروية الشكل . . يبدأ من إحداها ويظل يتنقل حتى ينتهى إلى حيث بدأ .

ويمتاز الأخوان بملكة « الانطباع فى الذاكرة » فكل ما يقرآنه أو يشاهدانه ينطبع فى ذاكرتهما بصورته الحسية . . فكان — مثلا — الرسام « صاروخان » يرجع

إلى «على» إذا أراد أن يعرف فى أى عدد وفى أية صفحة من المجلة كانت الصورة التى رسمها لشخصية ما . . كان كل منهما — ولا يزال — أرشيفاً حياً . . .

قال لى «على» إنه كان يحفظ خطب «سعد زغلول» ، و«مكرم عبيد» ، وأنه حفظ المسرحيتين الشعريتين «مجنون ليلى» و «كيلوبطرا» لشوقى لشدة إعجابه بهما ، مع أنه لا يهتم بقراءة الشعر على الإطلاق بما فيه بقية شعر «شوقى» .

وكانت قراءة الطفلين منوعة ، ولكنها كانت مركزة بصفة خاصة عن كل ما يتصل بالصحافة .

✡ ✡ ✡

كان أول حب لعلى أمين فى «دمياط» وهو فى السادسة من عمره . . كانت بنت الجيران ، وكانت بين الأسرتين صداقة ، وانتقلت الأسرتان إلى القاهرة ، وانتقل معهما الحب ، وكبر الطفلان وكبر معهما الحب . .

واتفق الحبيبان الصغيران على الزواج . . وكان أمر الحب والرغبة فى الزواج معروفا فى محيط الأسرتين .

ولما نشأت فكرة سفر على إلى « انجلترا » قلق الحبيبان واشتد وجيب قلبيهمـــا . . ونشأت عند « على » فكرة اطمأنت لها الحبيبة ، وهى أن يعقد القران بينهما ثم يسافر ، ويتم الزواج بالزفاف عقب العودة إلى الوطن . . . وعرض «على» الفكرة على والدته ثم والده ، فأنكرا عليه أن يفكر فى الزواج فى هذه السن وأمامه مستقبل وتجارب ودراسات يجب أن يهتم بها ولا يشغل باله بغيرها ، فطوى قلبه على الحب وامتثل للأمر الواقع .

وقبيل السفر تلقى نصيحتين متناقضتين : الأولى من «مدموازيل فريده» الوصيفة الألمانية فى منزل «سعد» زغلول قالت له « احذر البنات الإنجليزيات ، لا تنشىء أية علاقة مع واحدة منهن ، ولا تنفرد بأية امرأة هنـــاك . . فالإنجليزيات خطرات » .

وكانت النصيحة الثانية من والده . . قال « افعل ما تشاء . . واتصل بمن تشاء . . ولا تعمل حسابا إلا لشيئين: الأمراض ، والخطابات ، فالأمراض المعدية منتشرة

فى انجلترا ، والخطابات الغرامية وثائق يبنى عليها المحامون الإنجليز ما يشاءون ، ويفسرون كل عبارة من عباراتها كما يريدون » .

وبعد سنة من سفره تلقى خطابا من « مصطفى » يتضمن نبأ زواج حبيبة الطفولة . . فتأثر منه أشد التأثر ، لأنه كان يحبها حبا عميقا . .

وفى دور النقاهة من الحب الأول أحب فتاة انجليزية ، كانت زميلة له فى الجامعـــة . . . ولم يعمل بنصيحة « مدموازيل فريده » ولا بنصيحة والده . .

شىء واحد جعله نصب عينيه ، وصارح به حبيبته الإنجليزية هو حب الصحافة . . كان حب الصحافة قد كبر معه ونمـا بانجلترا فى دراسة الصحافة هناك ، وبالمراسلة بينه وبين « مصطفى » عن تطور الفن الصحفى ، وبمقالات « السندباد البحرى » التى يوافى بها « روز اليوسف » .. إلخ .

وعاد إلى مصر ومعه حبيبته وزوجته : الصحافة !

وأحب «مصطفى» أخت البنت التى أحبها «على» .. وكانت

أصغر منها . . وانتقل معهما الحب إلى القاهرة كذلك ، واتفقا على الزواج كذلك ، وكان كل شيء على ما يرام ، حتى حدث حادث لقى فيه الحب مصرعه . . .

كان «مصطفى» وحبيبته يتمشيان فى حديقة المنزل ، وكانا يتناجيان كأى حبيبين ، ويتحدثان عن المستقبل وعش الزوجية المأمول . . وفجأة سألته عما يريد أن يكون . . قاضيا . . مهندسا . . ؟ ! ولم تكن تتوقع أن يقول لها :

— صحفى .

فصاحت مذعورة :

— أعوذ بالله ! !

وأحس «مصطفى» كأن « العياذبالله » خنجر نفذإلى قلبه وقتل فيه الحب . . وانتهى أمره . .

ولم يأسف «مصطفى» على مصرع حبهالأول ، فقد كانت وفاته فى ظرف لا يستحق فيه أن يكون مأسوفا عليه . .

وخلا قلبه ، وعلق عليه لافتة « للإيجار » ، فلمحتها بنت الجيران من البلكون ، وتفاوضت النظرات

والابتسامات حتى تم الاتفاق . . على الحب من بعيـد . . ولم يكن بعد الابتسامات « كلام فموعد فلقاء » إنما كانت خطابات تتبادل « بحدف الطوب » .. كان يكتب لها الخطاب ويلفه على « طوبة » ويقذف به إلى شرفتها . . وهى تبادله « الحدف » ولم يتعد الأمر « حدف الطوب » حتى خطبت وتزوجت ! .

وعاد الراهب إلى محراب الصحافة إلى جانب شقيقه الراهب الآخر .

وبعد ذلك لم يطرق الحب قلب أىٍ من الراهبين الشقيقين المعجونين بماء الصحافة المقدس ! .



فكرى أباظه

فى سطور

- « فكرى أباظة » شاب فى السادسة والستين ..
- تخرج فى مدرسة الحقوق سنة ١٩١٧ .
- قيد فى جدول المحاماة سنة ١٩١٩ .
- اشتغل عقب ذلك محاميا فى مكتب الأستاذ محمد زكى على .
- فتح مكتب محام بالزقازيق سنة ١٩٢١ .
- احترف الصحافة بالعمل فى « دار الهلال » سنة ١٩٢٦ ، وجمع بين الصحافة والمحاماة ، وصار رئيس تحرير لمجلة « المصور » سنة ١٩٣١ .
- دخل مجلس النواب بالتزكية سنة ١٩٣٦، وقاطع انتخابات صدقى سنة ١٩٣٠ ، ثم دخل مجلس النواب بعد ذلك.. الى أن اعتزل النيابة البرلمانية سنة ١٩٥١ .
- لم يتزوج حتى الآن ، وقد خطب ١٢ مرة .
- عاصر حوالى ٢٥ حربا ابتداء من حرب روسيا واليابان سنة ١٩٠٤ ، الى الحرب العالمية الثانية .
- قدم للمحاكمة فى قضايا سياسية وصحفية ٢٥ مرة ، حكم فى بعضها بالبراءة ، وبعضها حفظ ، وبعضها صدر فيه عفو .

فكرى أباظة

ظل «فكرى أباظه» يضحك طول حياته .. فى طفولته ، وفى شبابه .. وفى شبابه أيضا الذى لايزال نضرا .. برغم تاريخ ميلاده !

وتاريخ الميلاد نفسه فى حياة « فكرى أباظة» ضحكة .. فهو ساقط القيد .. أراد العمدة أن يجامل والده فلم يسجل اسمه فى سجل المواليد ، لكيلا يدفع « بدلية » التجنيد !

وكان ذلك من حسن حظ الشاب اللامع « الأستاذ فكرى أباظة » المرشح لعضوية مجلس النواب فى سنة ١٩٢٣ ، والذى لم يبلغ إذ ذاك سن النيابة ، وهى ثلاثون سنة .. وهنا كانت الضحكة .. أبلغ قسم البوليس ضد المرحوم والده لأنه أهمل قيده فى دفتر المواليد .. وقدم الوالد المرحوم إلى محكمة المخالفات ، فحكمت عليه بغرامة قدرها عشرة قروش .. مع إثبات مولد الابن بالتاريخ الذى أراده ، وهو طبعا يوافق

سن الانتخاب ، وأخذ صورة رسمية من الحكم ، واعتبرت كأنها شهادة ميلاد . .

ويقول الأستاذ «فكرى أباظة» : إنه أضاف إلى عمره أربع سنوات ليستطيع أن يرشح نفسه . . وبعملية حسابية تعرف من ذلك أنه ولد سنة ١٨٩٧ . .

لقيته فى الموعد المحدد بالنادى الأهلى . . واستقبلنى وهو يضحك ، ودعانى إلى الجلوس مع « شلته » ، ويمكن أن تكون كل جماعة هناك شلته . . فهو يملأ النادى بصوته المجلجل : « تعالى يا جرسون . . لازم تاخد حاجة . . تعالى يا جدع يا جرسون . . . » .

وقال لى : « تعالى ندخل جوه فى النور » . . وسررت إذ ظننت أنى سأنفرد به ، ولكننا انتقلنا إلى شلة أخرى فى الداخل . . وغاظتنى التحيات والسلامات التى أخذ يوزعها هنا وهناك ، ولكن الذى طمأننى أنه لم ينصرف عنى . . كان يحدثنى وهو يحادث الآخرين والأخريات ، واستمر نشاطه ومرحه وضحكه طول الوقت . . كنت أدوّن بعض

النقط وهو يحدثنى ، فكان يقول لى بحكم ما اعتاده من كثرة الأحاديث الصحفية :

« خد شرطة . . حط نقطة .. اعمل علامة تعجب . . اقرأ كتاب «الضاحك الباكى » يساعدك فى الأسلوب . . »

وفى أثناء ذلك يلتفت إلى إحدى البنات ويقول لها : « إزيك يا حلوة » .

هذا الشاب . . يضحك منذ ٦٢ سنة !

قال لى إنه لم يبك فى حياته كلها إلا مرة واحدة . . حينما كان يعالج عينيه سنة ١٩٤٦ . .

ولِدَ ولم يبك . . واستمر فى طفولته لا يبكى . . « يشكشكونه» بالأبر والدبابيس لكى يتألم ويبكى ، ولكنه لا يبكى . . ثم كان يضحك . . ويضحك . . ولا يبكى .

ذعر أهله من هذه الظاهرة الشاذة . . طفل لا يبكى أبداً . . فلجأوا إلى الأطباء ولم يكن الأطباء أقوى أثراً من الإبر والدبابيس . .

فتركوه يضحك . . وظل يضحك . .

ويظهر أننا سنحتاج فى هذا الموضوع إلى أكبر كمية من النقط وعلامات الاستفهام . . ولا عجب . . فالموضوع عن أستاذنا « فكرى أباظة » . . أحاطت به علامات الاستفهام والتعجب فى مهده تسأل : « لم لا يبكى؟ » وتعجب من أمر هذه الظاهرة الشاذة العجيبة !

ولما كبر صار يعجب هو ويضحك من الأوضاع ومن الناس ، ومن نفسه ، وكتب ضاحكا ساخراً ، وكأن الكلمات لم تكن تكفيه فيما يريد أن يؤديه . . فأضاف إليها النقط وعلامات التعجب والاستفهام ! !

وكان أسلوبه فى الكتابة هو أيضاً ظاهرة عجيبة . . فى وقت كان الكتاب فيه يكتبون تحت ظل الأساليب القديمة ، وفى حماية المقومين من البلغاء ، ويعتبرون الكلمات الدارجة رجساً من عمل الشيطان .. فأعلن « فكرى أباظة » الثورة على هذه الحماية وكتب منطلقاً متحرراً ، فأثار الدهش والعجب .

* * *

ولد « محمد فكرى » بكفر «أبو شحاته» مركز «منياالقمح» مديرية« الشرقية »وكان الولد الثالث لأبويه .. وكان الوالد « حسين السيد أباظة » قد تعلم وتفقه فى دينه بالأزهر الشريف ، وكان ولداه الكبيران يتعلمان فى المدارس المدنية ، فأراد أن يدفع بالثالث « محمد فكرى » إلى الأزهر . . كى يكون عالماً من علمائه .

ودخل « محمد فكرى » كتَّاب « الشيخةصابحة » فى كفر « أبو شحاته» ، ثم انتقل إلى كتَّاب فى الجامع الأزهر ومكث فيه حوالى شهر ، وكان يقضى يومه من الصباح إلى المساء فى صحن الأزهر على الحصيرة ، ولا يتناول غذاء جيداً . . فساءت صحته ومرض . . وكانت ثورة عائلية ضد رغبة الوالد فى أن يتعلم ولده بالأزهر . . وحققت الثورةغرضها فانقطع عن الأزهر ودخل مدرسة « القربية » الابتدائية ثم مدرسة « الجيزة » الابتدائية ، ثم المدرسة « السعيدية » الثانوية ، ثم « مدرسة الحقوق » .

كان موفقاً فى دراسته المدرسية ، برغم شقاوته وهوايته

الرياضية وغيرها مما سنتحدث عنه . . كان قوياً فى اللغة العربية والجغرافيا ، ولكنه كان ضعيفاً فى الحساب ، ورسب فيه فى امتحان الشهادة الابتدائية ، وهى المرة الوحيدة التى رسب فيها وأعاد السنة فى مدرسة الجيزة ، وفيما عدا هذه المرة كان ينجح بتقدم ، وكان ترتيبه العشرين من أربعة آلاف فى شهادة « البكالوريا » .

وقد برز وهو فى التعليم الثانوى فى هوايات متعددة : الشعر ، والصحافة، والموسيقى ، والتمثيل، والرياضة البدنية... حفظ أربعة آلاف بيت من الشعر العربى ، فأعانه ذلك على نظم الشعر . . وكثيرون لا يعرفون أن الأستاذ « فكرى أباظة » بدأ ينظم الشعر فيما بدأ به من نشاطه الفكرى . .

ومن شعره قصيدة يصف بها الزوجة التى يريدها ، والتى لم يعثر عليها إلى الآن . . أولها :

« أخاصمها تصالحنى وأغضبها فترضينى

فإذا ماغبت تذكرنى ، وتتبعنى على دينى »

وهو يقصد بقوله « وتتبعنى على دينى » أن تكون على

مزاجه .. فقد هم بالزواج من فتاة مسيحية بأسيوط ، عندما ذهب إليها سنة ١٩١٩ لمباراة فى الكرة ضمن فريق « النادى الأهلى » ، وكان محامياً ناشئاً . . وعرض عليه زملاؤه فى « أسيوط » أن يبقى معهم فيها ، على أن يعمل فى مكتب محام كبير بمرتب قدره عشرون جنيها فى الشهر ، فقبل . .

وقامت الثورة فى « أسيوط » ، وكان هو من مشعلى نارها وذلك بنشيد وطنى ألفه ولحنه ثم ألقاه فى الكنيسة القبطية ،أوله :

« أبناء الوطن هلموا سيروا إلى الأمام

ارفعوا الصوت قوياً فالحر لا يضام»

وبحث الإنجليز عن صاحب النشيد الذى أثار عليهم جموع الشعب الأسيوطى ليفتكوا به . . ولكنه دبر حيلة ظريفة للهرب والخروج من « أسيوط » ، فزعم لمدرس إنجليزى تعرّف به هناك أن والده لما علم بأنه سافر إلى «أسيوط» مع فريق الكرة أعطاه سبعين جنيهاً ليشترى بها حميراً أسيوطية أصيلة . . ولكن الحوادث ونفاد المبلغ حال دون شراء أى

حمار . . فتوسط له المدرس حتى حصل على جواز سفر من أسيوط فى قطار حربى باسم « تاجر حمير » .

وعرف الفتاة المسيحية « مريم » خلال تلك الحوادث وأحبها . . وحدثت لها كارثة ، فقد اعتدى عليها بالإكراه « ذئب استرالى » من جنود بريطانيا !!

٭ ٭ ٭

بدأ «فكرى أباظة » التعبير عن خواطره بالكتابة الحرة فى رسائل كان يتبادلها مع زميله فى الفصل « محمد التابعى » الذى كان تلميذاً فى نفس المدرسة ، ثم أصبحا زميلين فى عالم الصحافة ، وكانت الرسائل المتبادلة بينهما تتناول الشئون العامة وخاصة السياسية .. وقد شرعا فى وقت واحد يكتبان بطريقة متشابهة موضوعات متماثلة بجريدتين كبيرتين تصدران فى مصر . . كان « التابعى » يكتب بالانجليزية فى « اجبشيان ميل » ، وكان « فكرى أباظة » يكتب فى « الاهرام » . . وكان كل منهما يتناول بالنقد والسخرية مسلك الموظفين الإنجليز فى الحكومة المصرية . .

بدأ « فكرى أباظة » مقالاته المشهورة فى «الأهرام» ، وهو فى نحو العشرين من عمره عقب تخرجه فى الحقوق ، وكان محامياً فى « الزقازيق » ، كانت أول مقالة له عنوانها « خيال وصياد» ، وكانت عن موظف إنجليزى يشرف على رى عدة أقاليم فى الوجه البحرى ، وكل مؤهلاته — كما جاء بملف خدمته — أنه « شاب قوى العضلات ، مفتول الذراعين يجيد ركوب الخيل ، ويحسن الصيد والقنص » .

ونجحت تلك المقالات نجاحاً كبيراً ، لخفة ظلها ، وأسلوبها الجديد المتحرر الضاحك ، ولوقعها الوطنى فى نفوس جماهير القراء . . ولعلها كانت أولى مقالات تحتوى على الخبر . .

وقد عرض عليه صاحب «الأهرام» أن يحترف الصحافة ، فاعتذر مفضلا «الهواية» على « الاحتراف » . . وظل يكتب هاوياً حتى احترف الصحافة بمجلة «المصور» سنة ١٩٢٦ . .

وكان عضوا فى كل جمعيات النشاط المدرسى من موسيقى ، وتمثيل ، وألعاب ، وغيرها . . قال لى « إننى أسجل فضل الإنجليز فى إشرافهم الحازم على هذا النشاط »

ولكن فضل « الإنجليز » لم ينفع عندما اشترك مع فريق التمثيل بالنادى الأهلى فى تمثيل إحدى الروايات ، فقد فشل فى دوره فشلا جر عليه السخرية من الحاضرين ، وكان يسمع هذه السخرية بصدر واسع ، وروح مرح ، بل كان يسخر من نفسه .. قال لى إن هذه الحادثة أثرت فى أسلوبه فى الكتابة ، إذ جعلته يجنح إلى النقد الساخر ، كما قال إنه تأثر فى كتابته كذلك بالكاتب الفرنسى « كليمان فوتيل » !

والذى يبدو لى ، أنه إذا كان هناك مؤثر طارئ على أسلوب « فكرى أباظة » فإن المؤثر الأول والمعين الذى لا ينضب هو روحه المرح ، وطبعه الضاحك ، وقدرته على تحويل المآسى إلى مهازل تضحك الناس ، وتبقى آثارها راسبة فى أعماقهم كما هى راسبة فى أعماق الكاتب .

كان يكتب منشوراته الانتخابية فى «الأهرام» .... وكانت ظريفة مضحكة ، ولكنها كانت تهدف إلى أغراض جدية فى نقد الأوضاع القائمة... كتب فى أحدها يعد الأعيان بما سيفعله لهم إذا صار نائبا فى البرلمان فقال :

« أما أنتم أيها الوجهاء ، . . البؤساء التعساء . . فسأنقذكم من الولائم الحكومية .. والاكتتابات العمومية .. والتبرعات الجبرية .. والسفريات والترحيلات الإجبارية الإيعازية . . ومع هذا فإنى لن أنسى الرتب السنية . . والنياشين الملكية »

☆ ☆ ☆

أما الرياضة البدنية فقد بدأها « محمد فكرى » بلعبة « الشقفة » فى مدرسة « القربية » ، وكانت أمنيته أن يلعب بالكرة الجلدية . . وتحققت هذه الأمنية يوم جمع هو وزملاؤه من كل تلميذ مليماً . . واشتروا كرة كبيرة . . وأذكر بهذه المناسبة أن حياته فى القاهرة ، وهو طالب صغير مع أخويه الطالبين الكبيرين بعيدين عن أسرتهم المقيمة فى الريف ، كانت على شىء من الخشونة والضيق ، إذ كانت مصاريف الأولاد الشخصية والمدرسية تتحملها ثروة الوالد بدرجة لا ترف فيها . .

وعندما دخل « محمد فكرى » فرقة الكرة بالمدرسة « السعيدية » حقق أمنيته كاملةً . . واشترك كذلك فى سائر

لألعاب الرياضية بالمدرسة ، وأصبح فيها من الرياضيين المرموقين .

وكان الطالب الرياضى « محمد فكرى » قوى الجسم ، متدفق النشاط ، كثير الشقاوة . . كثيراً ما قفز فوق سور المدرسة هارباً منها . . وكثيراً ما ضبط وهو يقفز .. وكثيراً ما صدر أمر الناظر بسجنه فى الزنزانة . .

كان يسكن فى « مصر القديمة » ، ويذهب إلى المدرسة ويعود منها بالترام .. ولكنه لم يدفع مليماً واحداً للترام .. كان يستخدم براعته الرياضية فى مداورة الكمسارى والقفز من ناحية إلى أخرى كى لا يدفع ثمن التذكرة . . وكان يرى أن شركة الترام شركة أجنبية تنتمى إلى المستعمرين ، وأن الركوب فى ترامها مجاناً جزء من الكفاح الوطنى . . وكان من جهة أخرى يقتصد ثمن الركوب لينتفع به فى هواية أخرى هى أكل «البسبوسة» .. وكان مصروفه اليومى قرشاً واحداً وهو لا يكفى لحاجة جسمه الرياضى من «البسبوسة» و«الكنافة» وما إليها . . ولهذا كان يقترض من « عم عثمان »

بواب المدرسة . . . قال لى إنه سدد آخر دين عليه لعم « عثمان » وهو نائب . .

وقد اشترك فى مظاهرات كثيرة . . سياسية وغير سياسية ، ولكنه لا ينسى مظاهرة « الملوخية » التى تزعمها فى المدرسة «السعيدية» .. ففى يوم من أيام شهر أبريل دخل طلبة المدرسة المطعم فسارعت إلى أنوفهم رائحة الملوخية الخضراء فى أول موسمها . . فتفتحت شهيتهم للأكل ، وصاحت عصافير البطون مغردة . . ونظر « محمد فكرى » إلى طبق الملوخية متمنياً أن يلتهم به عدداً من الأرغفة الطرية . . . ولكن لم يكن هناك غير « الرغيف » المقرر ، ثم نظر إلى الزملاء فرأى نفس الرغبة عندهم . . وكانت إشارات وهمسات انطلق الطلبة بعدها فى مظاهرة إلى حجرة الناظر وبيد كل منهم طبق الملوخية والرغيف . . وتقدم زعيم المظاهرة « محمد فكرى » إلى الناظر الإنجليزى وأفهمه أن هذا الصنف المصرى « الملوخية » يحتاج إلى عدد من الأرغفة ولا يمكن أن يأكل الشخص به رغيفاً واحداً .. فأمر الناظر لكل منهم برغيف إضافى ! !

ورغم شقاوة الفتى الصغير « محمد فكرى » ومرحه ومغامراته فقد كانت تربيته خشنة حازمة سواء فى المنزل أو فى المدرسة ، كانت حياته تكاد تكون محصورة بين المنزل والمدرسة، والقفز و« النط » بينهما فى الترام .. لم يجلس فى قهوة إلا يوم ظهور نتيجة الامتحان النهائى بمدرسة الحقوق ، إذ احتفل هو وزملاؤه بشرب الشاى فى « قهوة اللبان » بالعتبة .

وكانت أول تجربة له فى الحب عقب تخرجه مباشرةً ، بعد أن أصبح « أستاذاً » حراً طليقا ، خلا قلبه من هم الجغرافيا والتاريخ والحساب ، وخلا ذهنه من هم القانون الرومانى والاقتصاد والحجز على الأسهم والسندات .. لقد تفرغ الأستاذ « فكرى » للحب والهوى .. واهتدى إلى « بنسيون » فى حى أفرنجى بالقاهرة ، والتقى هناك بـ « ثروت » ؛ وهو اسم الفتاة .. وكان اسماً غريباً شعر بجاذبيته كما شعر بجاذبية صاحبته .. فلما شعر بأنها تحبه .. فكر فى إنقاذها من هذا الوسط .. لكنها « بنت هوى » ولا أمان لبنات الهوى .. لكن

الحب أيضاً له قدسيته وعظمته وجلاله ، ولو كان فى أقذر البيئات ولأحقر الشخصيات . .

كانت « ثروت » غريبة الأطوار ، ليست كغيرها من بنات الهوى . . بكت مرة ثم قالت له . .

— ما اسمى ؟

— ثروت . .

— كذب !

— ماجنسيتى ؟

— مصرية . .

— كذب !

كانت ، كما حكت له ، فتاة أرمينية ، وكانت تحب ضابطاً تركياً فى «القسطنطينية» اسمه « ثروت » فلما مات حزنت عليه وحملت اسمه حين جاءت إلى مصر مع ضابط أسترالى أيام الحرب العالمية الأولى !

بحث الأستاذ « فكرى» المحامى قضية حبه الأول هكذا :

أولا — البنت متعلمة ، ناضجة الحسن ، تفهم الحياة .

ثانيا — إنها من بيت طيب ، بدليل صور أسرتها التى أطلعتنى عليها .

ثالثا — إنها لا تزال زهرة يانعة ، فلم تمكث طويلا فى أيدى قاطفى الزهور .

رابعا — إنها ذات آلام ودموع ، فلها سر أليم رهيب .

« بناء عليه . . هى جديرة بالحب رغم موقعها الجغرافى ورغم ظاهرها التعس »

ثم بحث القضية على وجه آخر . .

أولا — إنها أرمينية .

ثانيا — إنها سقطت والسلام .

ثالثا — إن الدموع ثروة النساء . .

رابعا — مالى أنا وللأدوار العصبيـــة ، والنوبات التشنجية ، وهذه الحالات الجنونية . .

« بناء عليه . . هى غير جديرة بالحب ، وأنا جدير بأن أتفرغ لعملى وواجبى ومستقبلى » ... ولكن صورة « ثروت »

ونظراتها الساحرة تترافع فى قضية العاطفة فتكسبها على الوجه الأول !

ويدخل الحب فى دور وطنى عندما يبلغ الأمر إلى المنافسة بين الشاب المصرى والضابط الأسترالى .. إذ يتشبث الأول بحب الفتاة ، ويصر على ضرورة جلاء الأسترالى عنها . . وكان قد اعتنق مبادىء الحزب الوطنى التى تطالب بالجلاء عن أرض الوطن . .

وتنتهى القصة بانتحار الضابط وقتله الفتاة . . لأنها رفضت أن تسافر معه .

ويقع «الضاحك المرح» فى أزمة عاطفية عصيبة ، فيقضى فترة قصيرة فى حزن شديد يسافر فى أثنائه إلى «أسيوط» ، ويصادف هناك فتاة تشبه «ثروت» كل الشبه .. هى «مريم» التى تقدم ذكرها ، وتتنبه فيه القوى المرحة الضاحكة الراسبة فى أعماقه . . فتفلسف له الموقف هكذا . .

— أليست مريم تشبه «ثروت» قدًّا ولوناً وروحاً ؟

— أليس من الوفاء لثروت أن يحب شبيهتها «مريم» ؟

— إذن فهو لا يخون الميتة بهذه الحية .

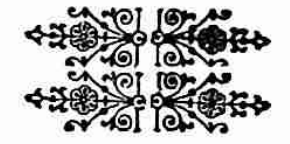
— بناء عليه . . فليسقط الحزنُ وليحي الحب . . حب « ثروت الثانية » !

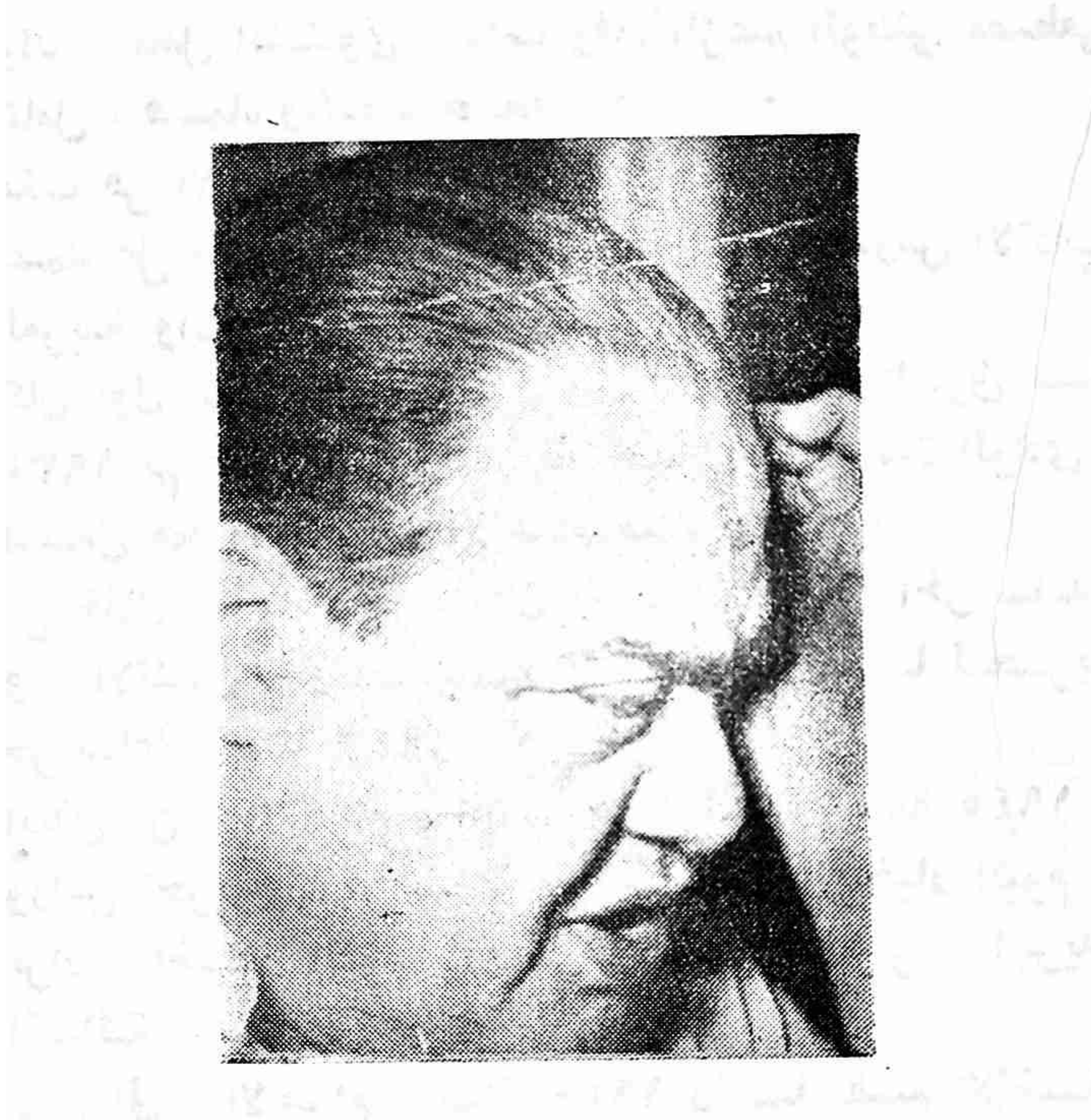
— وليسقط الإنجليز . . ولعنة الله على الأستراليين . .

— ولتحى مصر وليتعانق الصليب والهلال ! ! . .

ويستأنف الضاحك غير الباكى . . كفاحه ضاحكا ساخراً . . شعاره : « اضحك يضحك لك العالم » .

ويظل دائماً كما بدأ حياته يضحك .





كامل الشناوى

فى سطور

■ ولد « كامل الشناوى » عقب وفاة الزعيم الوطنى مصطفى كامل ، فسماه والده « مصطفى كامل » ٠
■ مكث فى الأزهر خمس سنين ٠
■ اعتمد على مجهوده الشخصى فى الدراسة ، فدرس الآداب العربية والاجنبية فى عصورها المختلفة .
■ كان أول عمله بالصحافة فى جريدة كوكب الشرق سنة ١٩٣٠ ثم عمل مع الدكتور طه حسين فى جريدة الوادى٠
■ اشتغل محررا بجريدة الأهرام سنة ١٩٣٥ ٠
■ فى خلال عمله بالأهرام كان يكتب فى مجلة «آخر ساعة» و « الاثنين » و « المصور » ، وعمل رئيسا لتحرير « آخر ساعة » سنة ١٩٤٣ ٠
■ انتقل من « الأهرام » الى « أخبار اليوم » سنة ١٩٤٥ ، ورأس تحرير « آخر ساعة » بعد ضمها الى أخبار اليوم ٠
■ ترك « أخبار اليوم » وعمل رئيسا لتحرير « الجريدة المسائية » سنة ١٩٤٩ ٠
■ رجع الى « الأهرام » سنة ١٩٥٠ رئيسا لقسم الأخبار فيها ٠
■ ترك « الأهرام » سنة ١٩٥٢ وعمل رئيسا لتحرير جريدة الأخبار ٠
■ ترك «الأخبار» سنة ١٩٥٥ وعمل رئيسا لتحرير جريدة « الجمهورية » ثم عاد بعد ذلك الى رياسة تحرير الأخبار٠

كامل الشناوى

ولد « كامل الشناوى » فى قرية « نوسا البحر » التابعة لمركز «أجا» بمديرية «الدقهلية» ، وهى الموطن الأصلى للوالدة. وقد جاء إليها الوالدان ليقضيا فيها الإجازة السنوية ، وكان الوالد « فضيلة الأستاذ الشيخ سيد الشناوى » قاضى محكمة المحلة الكبرى الشرعية فى ذلك الوقت ، وكان المولود بكرى والدته ، أما الوالد فكان له أولاد من الزوجة السابقة المتوفاة .

وكان الوليد ممتلىء الجسم ، ضخماً ، ففرحت به الأسرة إذ اعتبرت هذه البدانة من علامات الصحة ، ومظهر وجاهة للفتى المأمول ، فكانوا يخفونه عن عيون الناس حتى لا يناله شر الحسد . . وقد لازمته البدانة من وقت الولادة حتى اليوم ، وكانت فى طفولته مصدر خجله منها وسخطه عليها ..

فإنه عندما كبر وصار يلعب مع الأولاد كانوا يعيرونه ويسخرون منه إذا جروا فى الشارع ولم يستطع أن يجاريهم، فانزوى عنهم وتهيب الناس .. كان يفضل الشارع الخالى من المارة ، والدكان الخالى من الزبائن ، والقهوة الخالية من الروّاد .

ولعل شعوره إزاء تلك السخرية ، واضطراره إلى العزلة كانا من الدوافع إلى الرغبة فى التفوق ، والتميز بشىء يجعل له اعتباراً يعوضه ، فكان أن قوى فى نفسه حب الأدب والشعر ، وكانت العزلة فرصةً للتأمل والتفكير والانهماك فى القراءة .

ولكن أصدقاء الطفولة عندما كبروا وعقلوا وقدروا ما فى زميل الصبا من مواهب وذكاء وروح مرح ، ونفس طيبة ، أسبغوا عليه تقديرهم وإعزازهم ودفعوه إلى المجتمع ، وأزالوا من نفسه التهيب ، فانقلب إلى العكس ، وكان من أولئك الأصدقاء رجال برزوا فى الحياة العامة ، فمنهم وزير سابق ، وممثل كبير ، وقد ألتفوا فى « جنينة قاميش » حيث

يقع منزل «الشناوى» جمعيةً للأدب والمسرح، وقدمت الجمعية مرة إحدى المسرحيات على مسرح « برنتانيا » بشارع « عمادالدين » ، وحدث أن غاب الممثل الذى كان عليه أن يمثل دور القاضى فى الرواية ، فأتوا « بكامل الشناوى » ذلك الفتى الضخم . . وأجلسوه على كرسى القاضى فوق المسرح ، ولم يكن الدور يتطلب كلاماً .. كان يتطلب فقط هيبة وهز رأس فى وقار القضاة .. فقام بالدور على أكمل وجه !

وقضى «كامل الشناوى» طفولته الأولى على شاطىء البحر الأبيض المتوسط..قضى أربع سنوات فى«بورسعيد» ، إذ نقل الوالد على أثر ولادته من«المحلة الكبرى» إلى«بورسعيد» قاضياً لمحكمتها الشرعية ، وبعد أربع سنوات نقل إلى «الإسكندرية» ، ولا يزال «كامل» يذكر شغفه بالبحر وهو طفل فى «بورسعيد» عندما كان يسير بصحبة والده على الشاطىء . . كانت أمنيته أن يلبى دعوة البحر بالنزول إليه . . ولم تتحقق الأمنية إلا فى شبابه ، ولكن متعته بها لم تطل ، فقد خطف منه البحر ابن عمه الشاب الذى كان مؤهلا لدخول الجامعة . .

خطفه أمام بصره ولم يرع البحر ما بينهما من علاقة قربى وحب قديم . . ولا يزال « كامل الشناوى » إلى اليوم يحب البحر ويرهبه فى وقت واحد . .

وقضت الأسرة سنتين بالأسكندرية نقل بعدهما فضيلة القاضى إلى « المنصورة » ، وهناك ألحق « كامل » بالمدرسة الابتدائية ، وكانت الوالدة قد نسيت نذراً نذرته . . إنْ رزقت بمولود ذكر . . أن تبعث به إلى الأزهر ليكون عالماً جليلا مثل والده . . ولكن حدث حادث ذكرها بالنذر القديم .. فقد أصيب «كامل» وهو فى السنة الثانية الابتدائية بحمى أقلقت الوالدة وجعلتها تتذكر . . واعتقدت أن هذه الحمى الملعونة لم تصب الولد المسكين إلا لأنها لم تف بالنذر . . وقال الوالد « على بركة الله ، لعل فى ذلك الخير « .

ومنع «كامل» من المدرسة، وأتى له فى المنزل بمعلم يحفظه القرآن ويؤهله للأزهر . ونقل الوالد إلى « قنا » ، ثم إلى «أسيوط» والأسرة معه، و «كامل» يتعلم فى المنزل ، حتى جاءوا إلى القاهرة وعمره نحو ١٥ سنة فألحق بالأزهر ، ومكث به خمس سنين .

وقد رأيت «كامل الشناوى» لأول مرة وهو فى آخر سنة بالأزهر ، وكنا إذ ذاك طالبين من طلاب السنة الرابعة الابتدائية ولم أره قبل ذلك ، لأنه كان يسبقنى بسنة دراسية ، فلما بلغت السنة الرابعة كان هو يعيدها ، لأنه كان منصرفاً عن الدراسة الأزهرية إلى أشياء أخرى سنعرفها فيما بعد .

سمعت من الفصل الآخر صوتاً ممتلئاً ، قوياً يلقى إلقاء غريباً ليس مثل الإلقاء المدرسى العادى ، إذ كان يعبر تعبيراً خطابياً جهورياً شغلنا عن متابعة الدروس فى فصلنا ، ونظرت إلى طالب بجانبى أسأله . . . فهمس لى :

« دا كامل الشناوى . . ابن الشيخ الشناوى . . أصله شاطر فى الإنشا . . وبيقرا الموضوع اللى كتبه . . »

وبعد الحصة وجدتنى أتجه إلى فصل « كامل الشناوى » ورأيت الطلبة يحيطون به معجبين وهو فى وسطهم يبدو « شيخاً » صغيراً ضخماً يلبس جبة من الجوخ وقفطاناً من الشاهى وحزاماً من الحرير ، وعلى رأسه عمامة صغيرة نظيفة أنيقة «مقلوظة» وقد فصلت الجبة والقفطان تفصيلا

أنيقاً ، وكان الشيخ « كامل » رغم بدانته يبدو إذ ذاك على نحو ما ترى الآن « الشيخ عبد الباسط عبد الصمد » .

وكان ذلك الزى يظهر غريباً فى وسطنا نحن الطلبة الآتين من الريف بجلابيبهم الريفية ، الذين يمثلون أكثرية طلبة الأزهر ، وكان « أولاد المشايخ » أى أبناء علماء الأزهر ، هم وحدهم دون سائر الطلبة ، الذين يلبسون الجبة والقفطان ، ولكن « الشيخ كامل بن الشيخ الشناوى » كان مميزاً بأناقة غير مألوفة ، وقد كان العلماء المدرسون يلبسون الجبب والقفاطين ولكن أكثرهم كانوا « مبهدلين » !

وكان قبل ذلك يلبس البدلة وفوقها «الكاكولا» . . وعند الخروج من المعهد يخلع « الكاكولا » ثم رأى أن يلبس زى المشايخ ، فاشترى له الوالد طقم المشايخ كاملا من أغلى قماش .

ولكن الشيخ « كامل » ضاق بحياته الأزهرية ، وتطلع إلى آفاق أخرى ، فأفضى إلى والده برغبته فى أن يدرس اللغة الفرنسية ويسافر إلى فرنسا لدراسة الحقوق ، ووافق الوالد ، وأحضر له مدرساً للفرنسية بالمنزل ، وقطع فى تعلم

هـذه اللغة شوطاً ، ولـكنه كان فى الوقت نفسه مشغولاً بالشعر والقراءة الأدبية ، وطرأ عليه شاغل قوى آخر كان له أكبر الأثر فى حياته ... كان حباً فى «المعادى» . .

وراح يتهرب بشتى الحيل والأساليب من مدرس الفرنسية ليذهب إلى «دارالكتب» بباب الخلق أحياناً ، وإلى «المعادى» أحياناً أخرى .. حيث الحبيبة التى أثرت فى حياته وتكوين شخصيته تأثيراً كبيراً . . سنراه بعد قليل .

وفى هذه المرحلة كان التكوين الحقيقى لشخصية « كامل الشناوى » من جميع النواحى . .

اتخذ من « دار الكتب » جامعته التى تخرج فيها . . كان يشترى ما يستطيع من الكتب ، ولكن قوته الشرائية لم تكن تكفى لحاجته العقلية النهمة ، وقرأ ما فى مكتبة الوالد من كتب الأدب ودواوين الشعر وخاصة كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى ، ووجد فى « دار الكتب » كل ما كان يطمع فيه ويعجز عن الحصول عليه ، ولما رآه الوالد شغوفاً بالشعر ، ورآه قدقرأديوان «حافظ» وديوان «شوقى» وحفظ

منهما كثيراً نبهه إلى قراءة شعر « المتنبي » و « البحترى » ، و«أبي تمام » . وعند ما ذكر له « المعرى » قال له « اقرأ شعره بحــذر . . وذلك لما فيه من شطط لا يرضى عنه رجال الدين » فكان ذلك باعثاً لـكامل على العكس . . عكف على قراءة شعر « أبي العلاء المعرى » وحفظ أكثره . .

وكان الوالد يقرأ كتب الأدب ويقول الشعر ، وقد سرَّ عندما رأى ولده يتجه إلى القراءة الأدبية ، ورأى فى ذلك ما يعوّضه عن الدراسة المدرسية التى أعرض عنها ، فشجعه على تحقيق أمنيته فى أن يكون شاعراً كبيراً ، تلك الأمنية التى كانت أكبر أمانيه والتى تحققت فعلا ، فصار الأستاذ « كامل الشناوى » من أكبر شعرائنا ، وكنا ننتظر منه إنتاجاً شعرياً أكثر لولا انشغاله الشاغل بالصحافة .

ولـكن الوالد العالم الدينى الوقور يرى ولده يوماً يقرأ قصة من القصص الشعبية تروى مغامرات « أبو زيد » و « عنتر » و « سيف بن ذى يزن » وأمثالهم ، فينكر عليه ذلك ويقول له : « ما هذا الـكلام الفارغ ؟ »

وكان « كامل » قد أخذ فى قراءة هـذه القصص وهو « مكسوف » . . . يقرؤها فى خفية .. فلما ضبطه والده زاد «كسوفه»ولم يستمر فى قراءتها ، ثم تحول ميله عن قراءة هذه القصص الشعبية إلى القصص المترجمة : بوليسية وغرامية وغيرها .

وقرأ كتب«المنفلوطى» وعاش فيها زمناً ، ثم قرأ نقد النقاد للمنفلوطى ، فتأثر به واقتنع بأن الـكاتب لا ينبغى أن يشغل نفسه بالزينات اللفظية على نحو ما يفعل « المنفلوطى » .

لم تـكن قراءة « كامل » قراءة عابرة للتسلية ، بل كان يتأمل ويدرس ويتأثر ، وقد شغل فـكره كتاب « النشوء والارتقاء » لشبلى شميل الذى يقرر فيه نظريات « دارون » فى أصل الإنسان ، ولم تقف دراسته وتأثره عند القراءة ، بل شملتا مظاهر التعبير الفنى على اختلافها ، واستمع إلى الموسيقى الـكلاسيكية فلم يستسغها أولاً ، ثم داوم على سماعها حتى تذوقها وتأثر بها واستوحاها فى أدبه لا فى الأفكار فقط ، بل كذلك فى التعبيرات والألفاظ ، فقد استوحى من السيمفونية الخامسة التى يعبر فيها « بيتهوفن »

عن ضربات القدر وإصراره ، ما يقول فى هذا البيت :

« ثم كانت صحوة كالنار كالتيار كالقدر العتيد » .

وكانت حبيبة « المعادى » الآنسة « س » أستاذةً له . . إذ وجهت حياته وفهمه للأشياء وقيمه الاجتماعية توجيهاً مختلفاً عما كان عليه .

طالب أزهرى ابن أحد علماء الأزهر ، وابن أخ لعالم كبير صار شيخاً للأزهر ، نشأ فى هذه البيئة الدينية ، وتكونت عاداته ومعاييره على مقتضاها يرى نفسه فجأة بين أسرة على أحدث الأوضاع العصرية تسكن ضاحية « المعادى » . . استصحبه إليها مدرس اللغة الفرنسية الذى كان يعلمه بالمنزل وهو خال الآنسة « س » .

قال لى الأستاذ « كامل » :

« لقد مدَّنت « س » عاطفتى . . وغيَّرت أسلوبى فى الحياة .. نزعت من نفسى أشياء كثيرة ، ووضعت مكانها أشياء أخرى . كنت أعرف أن الرجل إذا خلا بالمرأة كان ثالثهما الشيطان .. ولكنى خلوت بها مراراً ، بل عشت

معها كثيراً فكنت أرى : إما لوحة رائعة نتأملها ونتذوق مافيها من فن وجمال ، وإما قطعة موسيقية نسمعها ونعيش فى جوها الساحر ، أو حديثاً عذباً أسمع فيه تغريدها ، أو نظرة يطل علىّ منها عالم جديد . . ولكنى لم أر الشيطان . . »

خلقت الآنسة « س » الفتى « كامل الشناوى » خلقاً آخر ، فغيرت فهمه للحياة الاجتماعية ، وبدلت سلوكه .. قلبته من فتى ناشىء فى بيئة دينية محافظة لها تقاليد معينة ، إلى فتى عصرى « اسبور » خلع العمامة عن قلبه كما خلعها عن رأسه ..

ولم تخل مواقفه معها من طرائف . . كان أول الأمر يسير معها فيسبقها فى السير ويسرع كى يجعلها وراءه . . وإذا قابلهما أحد معارفها ابتعد عنها .. فتناديه فيأتى « مكسوفاً .. »

ورأى الرجال يقبلون أيدى النساء فجعل يفعل مثلهم .. ونسى نفسه مرة وهو يقبل يدها ، فهم برفع يدها إلى جبهته . . كما يفعل عادة مع والدته أو عمه . . ولكنه أدرك حرج الموقف بسرعة فلم ينفذ ما اعتزم ولم تلحظ .

وشغل « كامل » بالآنسة « س » عن دروس خالها فى اللغة

الفرنسية ، وعن السفر إلى فرنسا ، وغرق فى الحب والشعر .. قال لى :

« أول شعر قلته معبراً عن حقيقة مشاعرى هو ما قلته فى حبيبة « المعادى » ومنه :

« المعـــادى أو نفحة من هواها
تودع النفس فى شذاها الشجونا
المعـــادى فقد تركت فؤادى
فى رباها مشرداً مجنونا »

ذلك أنه أحب قبل ذلك بنتاً فى القرية وهو فى نحو الخامسة عشرة ، فتغزل فيها بشعر تبين له أنه شعر مزيف لا يعبر عن نفسه ، وإنما كان ترديداً لمعانى وألفاظ الغزل التى قرأها فى شعر الشعراء . شكا من الهجر وهى تلازمه .. وعبر عن الغيرة ولم يكن هناك أحد غيره .. بعث إليها بالسلام على جناح النسيم وهى بجواره .

وقد صارح « كامل » حبيبته « س » بأنه لا يريد أن يتزوج لفكرة فى نفسه .. هى أنه يعتقد أن وجوده

فى الحياة مشكلة لم يصل إلى حل لها ولا يطمع أن يصل ، فلا يريد أن ينجب مشاكل أخرى . .

وقد نشأت هذه الفكرة فى نفسه وهو صغير عندما ماتت أخته الصغيرة ، وكان يحبها ، فجعل يتساءل : « لماذا ماتت ، فى حين لا يموت كثيرون غيرها إلا بعد أن يكملوا دورهم فى الحياة ؟ ولماذا وجدت ؟ » ثم تطور السؤال فصار يسأل نفسه : « لماذا وجدت أنا ومن أين أتيت ، ولماذا أعيش ؟ » وهو يردد هذه المعانى فى شعره وكتابته .

و « كامل الشناوى » يملأ المجالس ضحكاً ومرحاً ونكتاً وقد يعربد ، ولكنه حين يخلو إلى نفسه يفكر فى وجوده كمشكلة ، وهو يلجأ إلى المرح والضحك لكى ينتصر على حزنه العميق .

وأحياناً يسلّى نفسه بتدبير « المقالب » ولا يعفى منها أقرب الناس إليه ، وهو يفعل ذلك منذ الصغر ....

كان والده صديقاً للدكتور « محجوب ثابت » ، وكان الدكتور يزوره فى المنزل فانقطع مدةً ، وفكر « كامل »

فى أن يدبر المقلب . . فجمع بعض أصدقائه وزملائه فى جمعية المسرح وعمل «مكياج» فلبس ذقناً مستعارة وكبس الطربوش فى رأسه على طريقة الدكتور «محجوب» ، وأمسك بعصى .. وقصد إلى زيارة « الشيخ الشناوى » ومعـــه حاشية من أصدقائه ومثـّل موكب « محجوب ثابت » . . وصعد الموكب إلى غرفة الاستقبال ، وجاء « الشيخ » وسلم وجلس ودار الحديث والسؤال عن الصحة والأحوال ، وفرقعت «القافات» فى فم الدكتور المزيف ، وكان « محجوب ثابت » يتكلم دائماً بالقاف حتى كانت تكتب عنه المجلات الهزلية « الدقتور » ثم تبين الوالد صوت ولده بين « القافات » المتتابعة ، وانكشف الأمر ، فنهض وأخذ العصا من ولده ليضربه بها ، ولكنه أسرع بالجرى . .

و « كامل الشناوى » يميل إلى السهر منذ صغره ، وكان والده يحتم عليه أن يعود إلى المنزل مبكراً بحيث لا يتأخر عن التاسعة مساء ، ولكنه كان يسهر ويتأخر ، فإذا عاد إلى المنزل صعد السلم على أطراف أصابعه وفتح الباب بحذر ،

وكان ينام فى الدور الثالث ، والوالد ينام فى الرابع ، فإذا شعر الوالد بِرِجْل على السلم أو بفتح الباب، أطل من فوق قائلا : « مين ؟ » . وهنا يسرع « كامل » فيطل من باب الدور الثالث ويقول هو أيضاً : « مين ؟ » .

وكان يسهر فى مولد « السيدة زينب » حتى الصباح برغم نصيحة والده بألا يذهب إلى هذه الموالد التى هى بدعة . . ويعود إلى المنزل ويصعد السلم بحذر ، فإذا رآه الوالد تحول عن الصعود إلى الهبوط فيقول له :

— على فين ؟

— خارج .

وأكثر الناس تأثيراً فى تربية « كامل الشناوى » وتكوين شخصيته هما : والده و « حبيبة المعادى » .. وقد كانت أسرة والده تختلف عن أسرة والدته ، كانت الأولى أسرة علم ودين، أما أسرة الوالدة فكانت أسرة غنى ونفوذ ، كان أخو الوالدة « محمد سعيد » مدير الشرقية والغربية ، وكان من أوائل المديرين المصريين الذين حلوا محل المديرين الإنجليز ، وكان

الصغير « كامل » يشعر باعتزاز وفخر بهذه الأسرة ذات النفوذ والغنى ، ولكن الوالد كان حريصاً على أن يجعله يدرك القيم الفاضلة التى تقوم عليها أسرة العلم والدين ، وكان يقول له « إذا جاز للإنسان أن يتباهى بشىء فأولى له أن يتباهى برجال يفيضون على الناس بالهداية والإرشاد ، وينيرون لهم سبيل العلم والمعرفة ، لا برجال يظلمون الناس ويضربونهم .. ويأخذون أموالهم . »

وكان لذلك أثره فى نفس « كامل » من حيث تقديره للناس ونظرته إليهم . فأول مايعجبه فى الإنسان ذكاؤه ، ولا يهمه بعد ذلك أن يكون غنياً أو فقيراً ، وهو يكره الغباء والجهل . وقد ورث عن والده تبديد المال ، وعدم الإبقاء على شىء منه ، فقد كان الوالد ينفق مرتبه كله ، وكان مرتبه كبيراً كسائر رجال القضاء ، وكانت للنقود قيمة شرائية كبيرة ، ولم يترك الوالد عند وفاته شيئاً .

وكذلك يعيش « كامل الشناوى » : مرتب كبير ولا شىء يبقى ! !



محمد التابعي

فى سطور

■ أصغر سنا من فكرى أباظة ..

■ تخرج فى مدرسة الحقوق سنة ١٩٢٣ .

■ عين موظفا بمجلس النواب سنة ١٩٢٤ .

■ استقال من الوظيفة سنة ١٩٢٨ .

■ بدأ الكتابة بالصحف وهو طالب بالحقوق .

■ عمل رئيسا لتحرير مجلة « روزاليوسف » سنة ١٩٢٨

■ أنشأ مجلة « آخر ساعة » سنة ١٩٣٤ .

■ أنشأ مع محمود أبوالفتح وكريم ثابت جريدة « المصرى » سنة ١٩٣٦ .

■ باع نصيبه فى جريدة المصرى « لمصطفى النحاس » سنة ١٩٣٨ .

■ فى سنة ١٩٤٦ عقد اتفاق بينه وبين صاحبى «دار أخبار اليوم » على أمين ومصطفى أمين على بيع « آخر ساعة » لهما ليتفرغ للكتابة فى صحف الدار ومجلاتها .

■ هو الآن مدير تحرير جريدة « الأخبار » .

■ صاحب مدرسة فى الكتابة الصحفية ، له فيها تلاميذ هم الآن من كبار الصحفيين .

■ قضى معظم شبابه مضربا عن الزواج ، ثم تزوج منذ عشر سنوات فقط .

محمد التابعي

« محمد التابعى محمد وهبه » :

هذا هو الاسم المدون فى شهادة الميلاد للكاتب الكبير الأستاذ « محمد التابعى » ، وسأتناوله فى هذا الموضوع قبل أن يكون كاتباً كبيراً بزمن طويل :

ولد فى « الجميل » قرب « بور سعيد » حيث كانت الأسرة تصيّف ، وهناك مقام « الشيخ التابعى » المشهور ببركاته وكراماته . . فسمّى الوليد « محمد التابعى » تيمناً بالشيخ . ولا يذكر «التابعى» شيئاً عن المصيف القديم « مصيف الجميل» الذى لم يعد مكاناً للاصطياف ، فإن تردد الأسرة عليه لم يطل ، فقد توفى الوالد ولم يعد من الميسور مادياً أن تصيّف الأسرة .

ونشأ « محمد التابعى » بمدينة « المنصورة» موطن أسرته ، وكان « رب القلم» الآن « رب السيف » فى صغره .. مع فارق

واحد هو أن قلمه الآن قلم حقيق ، أما سيفه فكان تقليداً .. كان يصر على أن يمثل أمام رفاقه « أولاد الشارع » شخصية « أبو زيد الهلالى سلامة » ويترك لغيره ما يشاء أن يكون « دياب » أو « الزناتى » أو أى بطل آخر . وكان الفارس الكبير « أبو زيد » ممثلا فى شخص البطل الصغير «محمدالتابعى» يخرج إلى خصمه فى الميدان وقد ارتدى الزرد والخوذة النحاسية ، وعلق فى وسطه سيفاً قد يكون من الخشب أو من جريد النخل .. على نحو ما يرى هو صورة البطل الخالد كما تخيله ورسمه الفنان القديم .

وكان « الفارس الصغير » يعدّ نفسه لأن يصول ويجول فى ميادين أخرى حقيقية ، وبسلاح آخر حقيق عند ما يكبر ويصير كاتباً صحفياً يخوض معامع السياسة ، ومعارك النقد المسرحى ، متخذاً صفات « أبى زيد » من حيث الصلابة والإصرار فى المواقف المختلفة .

والتحق « محمد التابعى » بمدرسة «المنصورة» الابتدائية ، فكان تلميذاً عادياً فى دراسته ، واجتاز امتحانات السنة

الأولى والثانية بنجاح عادى لم يتفوق فيه إلا فى التاريخ ، وكان ضعيفاً جداً فى العلوم الرياضية ، فلما كان امتحان النقل من السنة الثالثة إلى السنة الرابعة رسب فى الخط العربى ، وكان الخط إذ ذاك مستقلا فى درجته وله نهاية صغرى ، فمن لم يبلغها كان عليه أن يعيد السنة . وأعاد « محمد التابعى » السنة الثالثة الابتدائية لرسوبه فى الخط . . ويقول الأستاذ «التابعى» : إنه إلى الآن لا يعرف فى خطه الفرق بين الرقعة والنسخ ، فالمهم الآن أن تكون كتابته مقروءة ، وكان المهم أيام المدرسة أن ينجح فى الخط بالنهاية الصغرى .

واستمر «محمد التابعى» فى دراسته يتقدم فيها ويزداد فهمه وإدراكه وتحصيله مع ازدياد سنه ، حتى كان أول مدرسة «العباسية» الثانوية فى امتحان شهادة « البكالوريا » ، وثالث الناجحين فى الترتيب العام ، وكان ممتازاً فى التاريخ والجغرافيا ،قوياً فى اللغات على وجه العموم ، وقد حصل فى الإنشاء العربى لامتحان البكالوريا على ٣٥ من ٤٠ ، ولكنه

كان فى السنة الأولى الثانوية ضعيفاً جداً فى اللغة الإنجليزية ، فكان المدرس الإنجليزى يعطيه صفراً ويضيف إليه أحياناً «١» . . ومعنى هذا أنه ليس فقط لا يعرف شيئاً ، بل هو أكثر من ذلك ! ومرة أعطاه « الصفر » المعتاد وسلبه الدرجة المعتادة .. وكتب له «ASS» - أى حمار . !!

فكان من ذلك أن أصر على أن ينتفع بما يتصف به الحمار من صبر ودأب ، فأخذ فى قراءة القصص الإنجليزية بأنواعها المختلفة بين خرافية وواقعية وغيرها ، وأوغل فى هذه القراءة حتى قوى فى اللغة الإنجليزية وصار يأخذ من المدرس الإنجليزى عشرة على عشرة زائدة واحداً .. سدد به الدين القديم . .

وقد شغل « محمد التابعى » الصغير بقصص البطولة الشعبية كما شغل بتمثيل هذه البطولة مع صبيان الحى ، عندما كان تلميذاً بمدرسة « المنصورة » الابتدائية . كانت والدته تلحقه فى الإجازة الصيفية بمدرسة أهلية تعمل طوال الصيف ، فكان يذهب إلى المدرسة ويدفع لها المصروفات

وهى كل ما يهمها ، ثم يذهب إلى دكان لبيع الكتب القديمة فى شارع « سوق الخواجات » بمدينة « المنصورة » ، ويعطى لصاحب المكتبة قرشاً ويأخذ ما يريد قراءته من الكتب ، ويجلس على كرسى أمام الدكان ويقرأ . . ومما كان يقرأ قصص : « ألف ليلة وليلة » ، و « سيف ابن ذى يزن » ، و « حمزة البهلوان » ، و « الهضام بن الهجام » وغيرها .

وكانت هذه أول مطالعاته الحرة .. وكان يستغرق فيها استغراقاً تاماً وخاصةً فى قصص «السندباد» التى يحكى بها غرائب أسفاره ومشاهداته . وقد كانت قراءة الرحلات تستهويه ، كما كان يهتم فى المدرسة بالجغرافيا ، فلما كبر صار هو « سندباد آخر » يجوب بلاد أوربا ويكتب عن مشاهداته ومغامراته فيها .

ولما انتقل إلى التعليم الثانوى وعاش فى القاهرة وجد ألوانا أخرى من القراءات الحرة ، فقرأ كتب « المنفلوطى » كما كان يفعل أكثر محبى القراءة من المتعلمين فى هذا الجيل الذى تلا المنفلوطى . ولما كان ميله شديداً إلى قراءة القصص

فقد وجد بغيته فى قصص « مسامرات الشعب » وهى سلسلة حافلة كان يصدرها الصحفى « خليل صادق » وكانت قصصاً مترجمة عن روائع الأدب الغربى، وكان يترجمها أدباء متمكنون من اللغتين العربية والأنجليزية أمثال « محمد السباعى » و « أحمد حافظ عوض » وغيرهما . .

وذلك إلى جانب قراءته للقصص الإنجليزية فى لغتها الأصلية ، تلك القراءة التى أراد أول الأمر أن يدفع بها عن نفسه وصمة التشبه بالحمار ، والتى كانت سبباً فى تحصيله للغة الإنجليزية إلى درجة أنه كان يكتب بها أسهل مما يكتب باللغة العربية . قال لى إنه فى تلك الفترة عندما كان يريد كتابة خطاب لصديق كان يجد نفسه ميالا إلى الكتابة بالإنجليزية أكثر من ميله للكتابة بالعربية .

ولعل لطبيعة تلك المرحلة الزمنية التى كان الإنجليز فيها مثلا قوياً ، أثراً فى ذلك .

وقد بدأ الكتابة الصحفية أول أمره باللغة الإنجليزية ، ذلك أنه كان يقرأ الصحف الإنجليزية فيغضبه ما يرى فيها

من تشويه للحركة الوطنيـــة المصرية ، ومن تجن على المصريين . وذات مرة كتب خطاب احتجاج إلى جريدة « إجيبشيان ميل » التى كانت تصدر فى مصر بالإنجليزية ، فنشرت الجريدة خطاب « محمد التابعى » ، وكان إذ ذاك طالباً بمدرسة الحقوق ، فشجعه ذلك على الكتابة فى نفس الجريدة ، فكان يكتب فيها مقالات عن المديرين والرؤساء الإنجليز ، ينقدهم فيها وينقد تصرفاتهم نقداً ساخراً ، وكان ذلك فى الوقت الذى كان فيه « فكرى أباظة » يكتب بنفس الطريقة فى جريدة « الأهرام » ، وكانت مقالات « التابعى » فى « أجيبشيان ميل » بتوقيع « M.T.M » وهى الحروف الأولى « لمحمد التابعى محمد » .

وأصبح « M.T.M » صديقاً لرئيس تحرير « أجيبشيان ميل » فدعاه هذا مرة إلى مشاهدة مسرحية « غادة الكاميليا » فى مسرح « رمسيس » ليوسف وهبى ، وكانت تقوم بدور « مرجريت » السيدة « روز اليوسف » ، ويقوم « يوسف وهبى » بدور « أرمان دوفال » ، و« عزيز عيد » بدور الأب « دوفال » .

وعند الانصراف من المسرح سأل رئيس التحرير صديقه « التابعى » عن رأيه فى التمثيل ، فأجاب بأن «روزاليوسف» قامت بدورها فى مستوى لا بأس به ، وأن « عزيز عيد » أجاد كل الإجادة ، أما « يوسف وهبى » فلا . . فطلب منه رئيس التحرير أن يكتب نقداً للمسرحية ونشر النقد بمجلة إنجليزية كان يصدرها رئيس تحرير « اجيبشيان ميل » ، وتتابع فى المجلة نقد « M.T.M » للمسرحيات .

وفى خلال ذلك تعرّف بأعلام المسرح فى مصر ، وتخرج فى مدرسة الحقوق ، وعين موظفاً بمجلس النواب .

وعندما أنشأت السيدة «فاطمة» مجلتها « روزاليوسف » عهدت إليه أن يكتب النقد الفنى بها ، ثم سافرت إلى باريس حيث كان زوجها « زكى طليمات » يدرس فى بعثة هناك فنون المسرح ، وأصبح أمر المجلة موكولا إلى «محمد التابعى» فكان يحررها كلها ، وبدأ فى ذلك الوقت يكتب التعليق السياسى الذى يتضمن الخبر ، وكان يوقع كتاباته فى النقد

الفنى بإمضاء «حندس» إذ كان موظفاً حكومياً ، و«حندس» لقب تدليل لصديق من أصدقائه رأى أن يتخذه لتوقيعه ثم تركه بعد أن استقال من الوظيفة وتفرغ للصحافة .

ويبدو لى أن بطولة « أبو زيد » التى مارسها تمثيلياً فى لعبه مع الأطفال ، والبطولة الشعبية على وجه العموم التى تأثر بها فى قراءاته الأولى كان لها دخل كبير فى تكوينه كاتباً مكافحاً مناضلا ، تغلب عليه سمات الفروسة فى الدفاع عن الموقف الذى يتخذه ، فلا شىء مما نفعله أو نتأثر به فى الصغر يضيع هباء ، بل يرسب فى الأعماق ثم يملى على الإنسان دوافعه فى أشكال تتشكل بعوامل الثقافة والبيئة والصفات الشخصية الأخرى .

ويظهر أن « محمد التابعى » كان طفلا منطوياً على نفسه ، أو على الأقل يقضى أوقاتاً طويلة بعيداً عن الناس ، وقد رأيناه يستغرق فى القراءة ، فكان صموتاً قليل الكلام ، ولا تزال فيه هذه الصفة حتى الآن .

قال لى : « أنا لا أحسن الكلام ، ولا أحب أن أواجه

الجماعات بالحديث ، وكثيراً ماطلبت منى الإذاعة أن أتحدث بها ، فامتنعت برغم الكثير من الإلحاح . »

ولذلك فإنه لما تخرج من الحقوق لم يتجه إلى المحاماة ، ولا إلى النيابة ، وإنما سعى فى الالتحاق بوظيفة بالسلك السياسى فلم يتيسر له من الوظائف إلا وظيفة بمجلس النواب لم يمكث فيها غير خمس سنين قضاها هاوياً فى العمل الصحفى الذى جرته إليه المصادفات .

فالطفل الذى « شحنت » نفسه بالبطولة ، وغرست فيه تربيته الأولى شدة الحياء والانطواء كان لا بد أن ينفجر على سنان قلمه .

ناضل الإنجليز فى « اجيبشيان ميل » ، وحمل على البدائية فى التمثيل المسرحى ، ووقف فى وجه مجلات كمجلة « الكشكول » كانت تؤيد الأقلية الحاكمة ، وتكيل الشتائم والسخرية للأكثرية الشعبية ، ولأول مرة تصبح للوفد على يد « التابعى » مجلة ظافرة هى « روز اليوسف » تطغى وتتغلب على مجلات خصومه فتسلب منها سعة الانتشار وتحصرها فى مجال ضيق .

وكتب « التابعى » فى « روز اليوسف » سلسلة مقالات بعنوان « ملوك أوربا تحت أستار الظلام » ظهرت فيها آثار البطولة الشعبية التى تعمل على خلق معركة : أى معركة .. فقد أعمل الخيال فى تلك المقالات التى كان لها أصل فى الصحف الأجنبية ، وندد بملوك أوربا وفضائحهم ، ولم يقتصر على الفضائح المترجمة ، بل أضاف إليها ما أبدعه خياله المناضل .

ولم تقف حملاته عند ملوك أوربا ، فقد حمل على شاه إيران « رضا بهلوى » وندد بفضائحه .

ولما كان شاه إيران حياً ، بخلاف ملوك أوربا ، وله ممثل فى مصر يحتج ، فقد حوكم « التابعى » وأدين بتهمة الطعن فى ذات الشاه الملكية ، وحكم عليه بالسجن ستة أشهر مع وقف التنفيذ ، ودفعته دوافع البطولة فى هذه المحاكمة إلى أن يعترف بأنه كاتب المقالات برغم أنه لم يوقعها باسمه ، ولم يكن هناك أى دليل مادى على إدانته .

وروح الكفاح المتأصلة فى نفس « محمد التابعى » هى التى جعلته يعمل بمجلة « روز اليوسف » محرراً فنياً وسياسياً ،

بل لقد كان يحرر فيها كل شىء : كان «ساعياً» يذهب بالأصول إلى المطبعة ، ويذهب إلى الحفار والخطاط ، ويملأ جيوبه بالأوراق والصور والأكلشيهات متردداً بين المنزل وإدارة المجلة والمطبعة ، ومكتب الخطاط والحفار ، وكانت السيدة صاحبة المجلة قد تركتها له ليرعاها وسافرت إلى باريس . . فاقتضته روح الفروسة أن يحافظ على الأمانة ويحسن رعايتها .

وروح الفروسة تلازم «محمد التابعى» حتى فى مغامراته النسائية ، ولا أقصد الهجوم والفتك . . . بل الأمر على العكس .

قال لى الأستاذ «التابعى» : «لم أبدأ امرأة بغزل .. فأنا على خلاف مايتوهم عنى أكثر الناس . وبعضهم يفسر ذلك بالكبرياء ، ولست متكبرا ، إنما أنا شديد الحياء ، وقد ظللت « خاماً » من ناحية العلاقة بالنساء حتى قاربت سن الثلاثين . كنت لا أعرف حتى البديهيات . . حدث مرة أن أرادت فتاة أجنبية فى مصر أن تمثل معى الدور المعروف للتعارف .. فجعلت منديلها يسقط منها على الأرض أمامى لكى ألتقطه

وأقدمه لها فتشكرنى . . إلخ . . ولكنى لم أتحرك . . بل لم أفهم حقيقة الموقف إلا فيما بعد . »

وفى كتابه « نساء فى حياتى » يقص قصته مع فتاة اسمها « ميريام » فيبدؤها بقوله :

« وها هى ذى قصة فتاة غير مفهومة أو قل إنى لم أفهمها فى تلك الأيام ، وكان ذلك منذ نحو ستة عشر عاماً ، أما اليوم فإنى أفهمها . وهذه السنوات تكفى لأن تعلِّم الجماد والحجر ، ولقد قالت لى « ميريام » ذات يوم إنتى جماد وحجر » . .

وفى هذه القصة — كما فى غيرها من قصص الكتاب — نرى « التابعى » يعامل الفتاة معاملة الفارس النبيل . . فلا يتكالب على متعة اللحم الرخيص . . بل يظل « نبيلا » معها ، حتى تعشق هى نبله .

إن فروسة « التابعى » فى هذا المجال تعنى أمرين قد يبدوان متناقضين : إنه مغامر ويتنقل بين « باريس » و « مونت كارلو» و «سان موريتز» ، و . . إلخ ليظفر بالصيد .. ولكنه

عندما يظفر به يتجلى فيه نبل الفروسة . . حتى يبدو كالجماد والحجر .

يقول فى وصف علاقته بإحدى الفتيات واسمها « هنى » :

« وامتدت صداقتى « بهنى » صداقة بريئة خالصة . . لم أحاول مرة واحدة أن أقتحم عليها ، بل قنعت بالوقوف بالباب ، ومنحتنى هى وداً خالصاً وعطفاً وحناناً ، وقل ما شئت مما هو دون الحب أو الامتزاج » .

وليس معنى ذلك أن « التابعى » عذرىّ الحب ، فلم يكن فى معظم علاقاته « حب » ولا « عذرية » وأقصد الحب الحقيقى الذى لاتغنى فيه واحدة عن واحدة ، أما العذرية فقد قال لى : « إننى لا أومن بما يسمونه الحب العذرى » .

المسألة عنده مسألة صداقة عطرية ناعمة ساحرة . . قد تثمر الامتزاج ، ولكن على طريقة « الفارس النبيل » . .

وأعتقد أن كثرة مغامراته النسائية فى نحو الثلاثين من عمره وما تلاها كانت انفجاراً للكبت الذى قاساه فيما قبل

ذلك ، فلم يكن شيء منها فى صغره ، وكانت رحلاته بين نساء كثيرات فى بلاد كثيرة ، وكانت قصصاً عملية ، ولكنها كانت مع كل ذلك فروسية .

وهناك حقيقة أدبية لا يفوتنى أن أسجلها فى الختام ، وهى أن شغف « محمد التابعى » بالقصص فى صغره وعكوفه على قراءتها يظهر واضحا فى كتاباته القصصية التى تبدو فيها مقدرته ككاتب قصصى ممتاز ، وأعتقد أنه لو لم توجهه المصادفات إلى الاشتغال بالصحافة لما كان إلا أحد أعلام القصة فى مصر .



محمد زكي عبد القادر

فى سطور

■ ولد سنة ١٩٠٨ فى قرية فرسيس بمديرية الشرقية ٠

■ تخرج فى كلية الحقوق سنة ١٩٢٨ ٠

■ اشتغل محررا بجريدة السياسة اليومية سنة ١٩٢٨ ، ثم كان سكرتير تحرير لها ، وللسياسة الأسبوعية ، حتى أقفلتا سنة ١٩٣١ ٠

■ أنشأ مجلة «الفصول» سنة١٩٣١ وهى مجلة ثقافية شهرية٠

■ اشتغل محررا بجريدة « الشعب » سنة ١٩٣٦ وتولى فيها القسم الخارجى ٠

■ اشتغل محررا بجريدة « الأهرام » سنة ١٩٣٧ واشتهر فيها بكلمته اليومية « نحو النور » ٠

■ ترك «الأهرام» سنة ١٩٥٠ وعمل بدار « أخبار اليوم » ، وهو الآن أحد رؤساء تحرير جريدة « الأخبار » ٠

■ له كتب : « عذاب الشهداء » و « على فراش الموت » و«البطالة ووسائل علاجها» و«محنة الدستور» وغيرها ٠

محمد زكى عبد القادر

كان « محمد زكى عبد القادر » طفلا رزيناً هادئاً يميل إلى « التعايش السلمى » ، وكانت بين الأسرتين الكبيرتين فى قرية « فرسيس » التابعة لمديرية « الشرقية » ، منازعات وخصومات ومعارك ، وكان «محمدزكى» حفيد عمدة القرية ، وكان العمدة عميد إحدى الأسرتين المتنازعتين ، ولكن حفيد العمدة الطفل كان يسأل نفسه دائماً : لماذا يشقون أنفسهم ويجرون عليها المتاعب بتلك المنازعات ؟ . وقد اتخذ لنفسه موقف « الحياد الإيجابى » من المعارك التى كانت تنعكس على أطفال الأسرتين ، فينعكس المثل القائل : « يعملها الصغار ويقع فيها الكبار » فيصبح هكذا : « يعملها الكبار ويقع فيها الصغار » .

لم يكن « محمد زكى » يشترك فى الشجار الذى ينشب بين فريقى أولاد الأسرتين ، ولم يكن كأبناء عمه وأقاربه

يعادى أبناء الأسرة الأخرى ، بل كان على العكس يعمل من جهته على التقريب بين الفريقين ، يتودد إلى من تجمعه بهم الظروف من أبناء خصوم الآباء ويصادق بعضهم ، كأنه يقول لهم بلسان الحال : « إذا كان آباؤنا مخطئين فلا ينبغى أن نرث نتائج أخطائهم » .

كان بعض أبناء قرية « فرسيس » يذهبون إلى مدينة « الزقازيق » القريبة ويعودون منها يومياً ، كى يتعلموا فى مدارسها ، فإذا كانوا فى المدرسة أو فى الطريق ، شوهد أولاد أسرة العمدة متباعدين عن أولاد الأسرة الأخرى ، فإذا تقابلت العيون كانت نظراتها شزراء .. وكان الآخرون يبادلونهم الإعراض والنظرات الشزراء ، إلا الولد الطيب الودود المسالم « محمد زكى » فلم تكن تصدر منه تلك النظرات ولا تتجه إليه ، بل كان على العكس . . يترك أقاربه أحياناً ويذهب إلى مجالسة الآخرين ومسايرتهم ، أو يقصد إليه أحدهم لمجالسته ومسايرته .

ولم أقل إن « محمد زكى » الصغير كان يذهب إلى ولد آخر

ليلعب معه . . بل قلت « ليجالسه ويسايره » ، فلم أستطع أن أتصوره يلعب ويلهو كسائر الأولاد .

ذلك لأنى لا أزال متأثراً بالحديث الذى دار بين الأستاذ الكبير « محمد زكى عبد القادر » ، وبينى . . فقد حدثنى عن نفسه وهو طفل حديثاً يدل على أنه كان جاداً مجداً ، ووقوراً فى صغره ، وفى كل أدوار حياته كما هو الآن.. ولم أنس بعد نظرته المستنكرة المؤنبة الغاضبة « فى هدوء . . » عند ما سألته عن تفكيره ومشاعره نحو الجنس الناعم وهو صغير !

واحتميت من تلك النظرات بفنجان القهوة الذى أحضره الخادم فى هذه اللحظة ، فجعلت أرشف منه وهو لا يزال حاراً . . كأنى أتشبث بالقهوة كمظهر من مظاهر الاحترام والإكرام . . التى أوشكتُ أن أفقدها . .

ولم أشأ أن أسلِّم بالهزيمة ، فقلت له :

— تعنى بهذا أنك لم تحب ؟

— أنا كنت مشغولا عن هذه الأشياء . .

— لكن أنا أذكر أنى قرأت فى كتابك « صور من الريف » قصة حب يدل جوها وظروفها على أنها وقعت لك وأنت صغير . .

— ومالـــو . . ؟

— أليست هى قصة حبك ؟

— وهل هذا حب ؟

— طبعاً ، وهى تدل على أنك أحببت حباً عميقاً . .

— وما لزوم هذا الكلام يا أستاذ ؟

— قد نحتاج إليه فى موضوعنا .

— يا أخى . . هذه أشياء تسبب المشاكل والمتاعب . . فدعْنا منها . .

ولا عجب فى ذلك ، فإن « محمد زكى عبد القادر » جاد منذ يومه الأول ، حتى فى حبه .. الذى نتركه الآن تجنباً للمشاكل والمتاعب . . على أن نعود إليه فى شكل آخر ، شكل إنتاج أدبى بدأ به قلمه فى أول شبابه .

نشأ « محمد زكى عبد القادر » فى دار كبيرة تسكنها

عائلة العمدة ، وهى مكونة من عدة عائلات صغيرة ، فكل ولد من أولاد العمدة قد تزوج وأنجب أولاداً ، والجميع يعيشون معاً فى معيشة واحدة يكفلها الأب الكبير ، وينفق عليها من إيراد أملاكه الزراعية ، وكان والد « محمد زكى » (ابن العمدة) يشتغل بالتجارة مستقلا فى عمله الخارجى ، وإنْ يكن مندمجاً بعائلته الصغيرة فى العائلة الكبيرة ، وكان ربحه من التجارة لخاصة نفسه ، لا يشارك به فى نفقات الدار الكبيرة التى تعيش فى بحبوحة من ثروة الجَدّ .

كان الطفل « محمد زكى » يخاف جده ويرهبه ، وفى الوقت نفسه يحبه ويحترمه ، كان الجد رجلا مهيباً ، قوى الشخصية، شديد الشكيمة ، يراه الطفل جالساً أمام «الدوّار» وبجانبه مشايخ البلد وأعيانه ، يتحدثون بصوت خفيض ، ويتحدث هو بصوت عال قوى ، يلقى أوامره على هذا وذاك ، ويستقبل الشاكين وأصحاب الحاجات ، فيقضى لكلٍ بمايتراءى له فى حزم وشدة ... كان الطفل يراه كذلك وهو يهم بعبور الشارع فلا يجسر على عبوره ، لما يداخله من رهبة

جده وخشيته .. وكان الرجل مع ذلك رحيماً ، يشمل أفراد أسرته بعطفه وحسن رعايته ، وكان الطفل يعجب من متناقضات جدّه .. على نحو ما يحدثنا به بعدما كبر فى كتاب « صور من الريف » ، فهو حين يراه فى صحته وعافيته يصرخ فى وجهه وينهره ، وقد يتفضل عليه بضربة على صدره تزلزل قوائمه الصغيرة ، ولا يجرؤ الطفل أن يتطلع فى وجهه ، بل لا يجرؤ حتى أن يبكى .. ثم إذا مرض الطفل ينقلب هذا الجد رحيماً وديعاً .. يأتى إليه ليعوده فى مرضه ، ويرفع غطاءه ليجس حرارة وجهه ويديه ، ويبتسم فى دعة ولطف .. ويكد الطفل ذهنه مفكراً فى هذا التناقض ، ولكنه لا يستطيع أن يهتدى إلى حل هذا اللغز العجيب . . ولا يصل إلا إلى نتيجة واحدة ، هى أن عليه أن يحب هذا الرجل ويرهبه فى وقت معاً .

وكان والد الطفل ، على عكس ذلك ، رقيقاً ليناً ، إذا جاءه ولده شاكياً من جده أخذه بين أحضانه وربت عليه وقال له : « إن جدك يحبك ويعزك ، ولكنه يريد لك أن

تكون مؤدباً » . ويفكر الصغير فى هذا الأدب الذى يضرب وينهر من أجله فلا يفهم ، ولا يصل إلا إلى أن هذا الذى يناله من قسوة الجد إنما هو ثمن الأدب المرجو .

كان « محمد زكى » طفلا مفكراً ، يستغرقه التفكير فى كل ما يحيط به ، فيبدو أكبر من سنه ، ويكسبه ذلك هدوءاً يتغلب على مافى طبيعة الطفولة من ميل إلى المرح واللعب ، فكان يجالس الكبار ويسألهم عما يفكر فيه ويحيره ويشغل نفسه بما لا يدركه الكبار أمثالهم . .

كان يسأل عن العفاريت واللصوص : أين يسكنون ؟ وكيف يعيشون ؟ وعن قطار السكة الحديدية : كيف يتحرك وكيف يجرى ؟ . وجاء إلى القاهرة مع أبيه وهو فى السابعة من عمره فشغل الترام فكره . . وراح يفحص عرباته عساه يجد فيها ما وجد فى قطارات السكة الحديدية من فحم وبخار ، فلم يجد إلا سلكا تتحرك عليه عجلة صغيرة فيجرى الترام . . ولما سأل أباه : « كيف يمشى الترام ؟ » ، وأجابه الأب : « بالكهرباء » ، زادت دهشته وهمّ أن يسأل : « ما هى هذه

الكهرباء ؟ » ، ولكنه أمسك عن السؤال حتى لا يقابل بالابتسامات والضحكات التى تقابل بها أسئلته المماثلة دون أن يظفر بجواب مقنع .

كانوا يقولون للمفكر الصغير الحائر : «ستكبر وتعرف» ، وكان يترك للأيام تفسير ما يغمض عليه . . ولكن شيئاً نغَّص عليه حياته وأرَّقه ، ولم يأمل أن تفسره له الأيام مهما كبر . . ذلك هو «الكتَّاب» الذى وجد فيه العذاب .

كان كل مَنْ حوله يحيطونه بالحب والعطف ، حتى جده الرهيب ، ولكن هذا « الفقيه » الذى لا يرحم طفولته ، وينال من جسده الرقيق بعصاه الغليظة . . جعل حياته جحيماً لا يطاق .

عرف معنى الحرية ولذتها عند ما كان يهرب من الكتَّاب وينطلق فى الفضاء والحقول وبين أشجار التوت والجميز . . لا يعكر صفوه إلا ما يتوقعه من غضب أبيه : وغضب الفقيه ، فكان يفكر : لماذا يصر أبوه على أن يجعل هذا الفقيه نقطة الظلام فى حياته ؟ ، وكان يحاول عبثاً أن يهديه

عقله الصغير إلى تفسير هذه الظاهرة ، وهل يستطيع أن يرجئها إلى أن يكبر ! !

ولم ينس ما أحس به من سعادة وما شعر به من حب نحو عمه الذى همس فى أذنه ذات يوم بأنه سيترك الكتّاب ، ويذهب إلى المدرسة فى الزقازيق . . انقضى إذن عهد الظلام والظلم ، وأخذ خياله يسبح بعيداً .. إلى المدرسة فيتصورها فردوساً مملوءاً بالحرية ، وأيقن يومئذ أنه سائر « نحو النور » .

لبس البدلة الجديدة والطربوش الأحمر القانى ، وذهب بصحبة عمه إلى «مدرسة الأمريكان الابتدائية» بالزقازيق ، وهى المدرسة التى نالت ثقة الأسرة واستبشارها ، لأن تلميذا من الأسرة رسب عدة مرات فى مدرسة الزقازيق الابتدائية ، فلما حوّل إلى مدرسة « الأمريكان » حالفه الحظ فنجح . .

كان « محمد زكى » التلميذ بمدرسة «الأمريكان» بالزقازيق تلميذا مجداً ، متفوقا ، وهو لا يزال يذكر ما كتبه له «الشيخ الهلالى» مدرس اللغة العربية على موضوع إنشاء : « لا يليق

بك » ، إذ كانت كتابة الموضوع دون المستوى الذى اعتاده وعرف به ، وهو مستوى عال .. وحفزه ذلك دائما على ألا يكتب مالا يليق به .

مادة واحدة فقط هى التى كان ضعيفاً فيها ، وهى الحساب ، ويظهر أن العداء بين الحساب وبين الأدباء والكتّاب عداء أصيل ..

وأتم « محمد زكى » دراسته الابتدائية ، وكان أمامه بعد ذلك أن يفكر فى اللحاق بمدرسة ثانوية ، وكان النظام فى ذلك الوقت أن يعقد امتحان دخول للمدارس الثانوية ، واتجهت النية إلى دخول مدرسة أميرية ، ولم تكن فى الزقازيق مدرسة ثانوية ، وعقدت مدرسة «الأمريكان» امتحان دخول لمدرستها الثانوية بأسيوط فدخله «محمد زكى» وسافر أيضاً إلى القاهرة ، وأدى امتحان الدخول بالمدارس الثانوية فنجح فى الامتحانين ، وكان الأول فى امتحان مدرسة «الأمريكان» ، واستحق بذلك مجانية سنة ، كالمتبع فيها مع الأوائل سنوياً .

وغلبت القسمة .. فالتحق « محمد زكى » بالمدرسة

« الإلهامية الثانوية » بالقاهرة التابعة للأوقاف الخاصة ، وقضى فيها سنتين حصل بعدهما على شهادة الكفاءة ، وكان يقيم فى القاهرة مع عمه الطالب بالأزهر . . وفى ذلك العام أنشئت مدرسة الزقازيق الثانوية ، فألحق بها حيث قضى السنتين الباقيتين له من التعليم الثانوى ، ثم التحق بكلية الحقوق فى القاهرة .

كان فى التعليم الثانوى ، كما كان فى الابتدائى ، وكما كان فى الحقوق طالباً مجتهداً متفوقا . . كان مثالا للشاب الريفى الصاعد الذى يمثل آمال أسرته فى الريف : أن يكون من الحكام ذوى الهيبة والنفوذ !

ولم يكن له أمل محدّد ولا مثل أعلى يسعى إليه . . كان منساقاً فى الطريق المرسوم ، يسعى فيه بكل ما أوتى من عزيمة ، وهو مستسلم لما يفضى إليه الطريق .

قال لى الأستاذ « زكى عبد القادر » : « لم يكن لى يوماً أمل فى شىء معين ، ولا خطة مرسومة حتى الآن . . أنا الآن لا أدرى ماذا سأفعل ، وليست لدى أية خطة ، كل ما أردته

فى حياتى هو أن أعمل ما أريده ، لا يضغط على أحد ، فقد عملت ، من أول أن دخلت ميدان الحياة العملية ، على أن أكون حر التصرف فى عملى ، وفى وقتى ، لا يقيدنى شىء ، وذلك بأن ادخرت ما استطعت من المال ، حتى لا أضطر إلى الخضوع لأية إرادة فى أى عمل بدافع الحاجة المعيشية . »

ولعل هذا هو الذى يفسر لنا الموقف الثابت الذى استمر عليه كاتبنا الكبير فى خلال الفترة الماضية من حياتنا السياسية حتى الآن : لم ينحز لحزب من الأحزاب ، ولم يمدح أحداً من الكبار ، بل وقف قلمه على التعبير عما يريد أن يقوله فقط ، وظل محصناً من أى ضغط خارج عن نفسه وإرادته ..

وحدثنى الأستاذ « زكى عبد القادر » عن قراءاته الحرة وهو صغير ، فقال : إنه أول ما فتح عينيه على القراءة وجد عند أبيه كتباً مختلفة ، فى الدين والأدب ، والتاريخ ، بعضها قديم ، وبعضها عصرى . . وكان منها كتاب « الأغانى » المعروف فى الأدب العربى ، وكان الوالد يقرأ كل هذه الكتب على الرغم من أنه لم يتجاوز التعليم الأولى ، أما هو (الأبن) ، فلم يجد فى نفسه ميلا لقراءة كتب الأدب .

وهنا كف عن الاسترسال فى التحدث عن قراءاته صغيراً ، وقال لى : « أنا لست أديباً ، ولم أهتم بقراءة الأدب حتى اليوم » .

لقد بدأ الصغير مطالعاته بالقصص ، واهتم خاصةً بقراءة روايات «جورجى زيدان» التى كتبها عن تاريخ العرب ، مثل «غادة كربلاء» و «١٧ رمضان» ، وأغرق فى قراءة الروايات على العموم ، وكانت منها البوليسية والغرامية ، وقرأ كتب المنفلوطى وهو فى التعليم الثانوى ، وكانت مؤلفات المنفلوطى هى المقروء المشترك بين الشباب فى ذلك الوقت ، وقرأ الكتابات العامة ، أى غير الأدب البحت ، لكتاب العصر ، وكان يعنى عناية خاصة بما يكتبونه عن رحلاتهم ومشاهداتهم فى أوربا ، وقراءاته المفضلة حتى اليوم هى المؤلفات السياسية والتاريخية .

وكان من أثر قراءاته للقصص أن ألف فى أواخر مرحلة التعليم الثانوى رواية «عذاب الشهداء» ، وطبعها على حسابه ، ووزع معظم نسخها على أصدقائه وزملائه ، وألف وهو فى السنة

الأولى بكلية الحقوق رواية « على فراش الموت » ، وكم كان فرحه عظيماً عندما عثر على ناشر رضى أن يطبعها وينشرها مقابل أن يعطيه منها مائتى نسخة ، لأنه سيوفر عليه تكاليف الطبع ، وسيظفر بالمائتى نسخة . . وألف وهو طالب فى الحقوق كذلك مسرحية اسمها « خطيئة امرأة » كان يطمع فى أن تمثلها فرقة «رمسيس» ليوسف وهبى ، ولكن صديقاً له بالفرقة أشار عليه أن يجرى فيها تعديلا وتنقيحاً ، وبقيت المسرحية لدى المؤلف ، لم تمثل ولم تطبع إلى الآن ! !

وقد نفعته الرواية الأولى عندما وقع فى أزمة مالية وهو طالب فى الحقوق ، إذ تأخرت عنه النقود المرسلة من البلد ، وأحس بالحاجة الشديدة إلى ما ينفق منه ، وليس من طبعه أن يلجأ إلى الاقتراض ، وكان قد بقى لديه من « عذاب الشهداء » خمسون نسخة ، فأخذها واتجه إلى درب الجماميز ، حيث عرضها على بائع كتب فقال له الكتبى :

— النسخة بستة مليمات . .

— ليه ماتخدش الواحدة بقرش ؟

— كلام واحد .

وأخذ منه المبلغ ، واضرب أنت ستة مليمات فى خمسين نسخة ، فهو وأنا ضعيفان فى الحساب ، ولا شك أن المبلغ كانت له قيمته بالنسبة لطالب غريب فى القاهرة يريد أن يحصل على شيء يتبلغ به حتى تأتى إليه النقود من البلد ، وكذلك بالنسبة إلى قيمة النقد فى ذلك الوقت .

ولما تخرج « محمد عبد القادر » من الحقوق لم يجد وظيفة حكومية ، وأراد أن يشتغل بالمحاماة ولكن سن « ٢٠ سنة » كانت دون الحد الأدنى وهو «٢١سنة» للقيد فى جدول المحاماة .

ثم قدمه الأستاذ « كامل البندارى » المحامى - وكان هذا يعرفه ويعرف أسرته - إلى الدكتور « محمد حسين هيكل » كى يعمل معه محرراً فى جريدة السياسية ، ورحب به «هيكل» وحدد له مرتباً ١٢ جنيهاً فى الشهر ، فقال له محمد زكى :

— خليهم ١٥ زى مرتب الوظيفة .

— ميزانية الجريدة لا تسمح ، وعلى كل حال « أدحنا مع بعض » والمستقبل أمامك .

وكان إلى جانب عمله فى سكرتيرية التحرير يكتب مقالات ، بعضها بإمضاء وبعضها بغير إمضاء ، وكتب كذلك فى « السياسية الأسبوعية » وهى مجلة أدبية كانت تصدرها «جريدة السياسة» أسبوعياً ، وكان يكتب فيها كبار الأدباء والكتاب ، وكان قبل ذلك وهو طالب يكتب مقالات وطنية واجتماعية .

وحدث أن استقال سكرتير تحرير «السياسة الأسبوعية» فأسند إليه عمله ، وأصبح سكرتير تحرير للسياسة اليومية والأسبوعية ، وطالب بزيادة المرتب ، فمنح علاوة قدرها ستة جنيهات ، وكان يتوقع أكثر منها ، لأنه حل محل سكرتير تحرير «السياسة الأسبوعية» الذى كان يتقاضى مرتباً كبيراً ، وأعرب عن رغبته فى ذلك فقال له مدير الجريدة :

« احمد ربنا . . دى الستة جنيه علاوة موظف فى الدرجة الأولى » .

وحمد ربنا ، واستمر فى العمل بالسياسة حتى أقفلت سنة ١٩٣١ .

ومن الموضوعات التى نشرها فى «السياسة الأسبوعية» قصة «غرام أسيف» التى صوَّر فيها حبه . . حبه هو . . كما اعترف لى وإن يكن قد ألحق اعترافه بتساؤله : أهذا حب ؟

— نعم هو حب . . وأى حب !

وقد نشرت هذه القصة بعد ذلك فى كتاب « صور من الريف » .

كان فى السادسة عشرة من عمره ، وكانت فى سنتها الرابعة عشرة . كان طالباً فى السنة الأولى بكلية الحقوق ، يقضى إجازته الصيفية فى القرية ، وكان شديد الخجل . . وقوراً جاداً فى الحب . . كما هو فى سائر أحواله . وكانت هى بالعكس جريئة لعوباً ، ولا بد أن تكون كذلك حتى لا تكوّن معه خطين متوازيين لا يلتقيان ، كان لا بد أن تقطعه . . ليلتقيا . . كان ينظر إليها ويرتعش ولا يتكلم ، بل لا يرفع عينيه عن كتابه أو جريدته . . وكانت هى تنظر إليه وتبحث عن عينيه . . وأخيراً قررت أن تهجم . . فجاءته . وكانت جارة له وسألته : هل ناداها ؟ ولم ير بدًّا من أن

يكذب فيقول إنه حقاً ناداها .. وكان لا بد أن تسأله عما يريد ، فاستنجد بكل ماقرأ فى الروايات الغرامية ، فلم تنجده إلا عبارة بسيطة :

— تعالى العصر . .

— حاضر . .

وجاءت فى العصر . . واحتار ، واحتارت . . ثم وجد منفذاً من الوجوم بأن ابتسم . .

ولا بد أن يكون قد ابتسم فى وقار وجدّ ! !

وتحدثا حديثا عاديا قصيراً ، وانصرفت .

وبعد ذلك كانت فى بيته جالسة مع والدته وزوجة عمه ، ورأته داخلا ، فوقفت لتحيته ، ولكنه مر عليهن دون تحية وعلى وجهه أمارات الجد والتفكير . . وذهب إلى غرفته ، ثم رفع بصره فإذا هى أمامه ، فذهل . . وحيته ومدت إليه يدها ، فصافحها دون أن يتحرك ... قالت إن أمه طلبت إليها أن تأتى لها بشىء من هذا الدولاب ، وكان مفتاح الدولاب معه ، فهمّ أن يفتح الدولاب وهى تتابعه بنظراتها ، وهو

يختلس إليها النظر فتفتنه محاسنها ، وتباطأ وهو يبحث عن الشيء المطلوب فى الدولاب ، وكان يبحث فى الوقت نفسه عن كلمة يقولها فلا يجد شيئاً ، فيصمت فى خجل وألم . . ثم تكلمت هى فعتبت عليه أنه مرَّ . . ولم يحي . . وسألته فى رنة ذات مغزى : ألا تستحق منه التحية . ؟ ولم يعرف كيف يعتذر ، ولكنه وجد كلاماً يقوله والسلام . . واكتفت بأنه حدثها . .

وقابلته مرة بعد يومين لم تره فيهما . وهزت يده بحرارة وكادت تقبله . . قالت إنها اشتاقت إليه فى هذين اليومين . . ولما سكت قالت له : « إنك لا تشعر بالشوق إلىَّ كما أشعر بالشوق إليك » . وتقدم إليها حتى حاذاها . وقال لها إنها مخطئة فى هذا الظن ، وأنه يحب أن يراها دائماً ، وكانت حزينة ، فوضع يده على كتفها وأحس بجسدها ينتفض ، وعلت الحمرة وجهها . . والتقت شفاههما فى قبلة طويلة .

وانتهت الإجازة ، وسافر إلى القاهرة . ويحدثنا فى باقى القصة عن حبه ولوعته فى البعد عنها ، ثم عن فجيعته فى هذا

الحب ، إذ خطبت الفتاة وتزوجت بالرغم منها ، وظلت في نفسه ذكرى غرام جرفه التيار .

وهذه القصة وغيرها من القصص والصور الريفية التي كتبها الأستاذ « محمد زكي عبد القادر » مكتوبة بتعبير قوي صادق ، وزاخرة بالإحساس النابض والمشاعر الإنسانية الجميلة ، لا ينقصها لكي تكون أدباً متكاملا إلا شيء من إحكام البناء الفني ، وإلا موضوع تعالجه أو فكرة تهدف إليها . وقد كتبها في نشأته الأولى ، ولا شك أنه لو داوم الكتابة القصصية لاستكمل هذه النواحي ، ولكن تيار الصحافة والكتابة في الشئون العامة ، ومعالجة الحياة اليومية في الصحف التي يحرر بها ، استأثرت به .

إنه يكتب بمجلته « الفصول » في موضوعات متنوعة على مستوى فكري أعلى من الصحافة اليومية ، ولكنه حكم على نفسه أو حكمت عليه طبيعته بأن يكون بعيداً عن الأدب البحت . . مثل القصة والشعر ، والنقد والدراسة الأدبية . ولعله وجد أن المنهج الكتابي الذي سار عليه أوفق لطبعه وما

جبل عليه من جد ووقار ، من أشكال الأدب التى قد تضطره
إلى أن يخرج عما التزمه من أدب .

كان الأستاذ « محمد زكى عبد القادر » مشروعاً صالحاً
لأن يكون أديباً ممتازاً ، وشرع فى تنفيذه ، ولكن لم يتم
تنفيذه ، إذ عدل به إلى « مشروع » آخر لعله أنجح وأنفع
من الأول ... من يدرى ؟ !





يوسف السباعى

فى سطور

- ولد يوسف السباعى فى القاهرة فى ١٠ يونيه سنة١٩١٧
- بدأ الكتابة عام ١٩٣٣ ونشرت له أوائل قصصه فى «مجلتى» و « المجلة الجديدة » وهو طالب بالمدارس الثانوية .
- تخرج فى الكلية الحربية عام ١٩٣٧ وعين ضابطا بسلاح الفرسان .
- فى سنة ١٩٤٢ نقل الى آلاى الدبابات وحصل على شهادة الدبابات من مدرسة الشرق الأوسط .
- فى سنة ١٩٤٣ عين مدرسا للتاريخ العسكرى فى الكلية الحربية .
- فى سنة ١٩٤٤ حصل على شهادة « أركان حرب » .
- أسهم فى انشاء « نادى القصة » وجمعية الأدباء واتحاد الأدباء وانتخب سكرتيرا عاما لكل منها .
- كان رئيس تحرير مجلة « الرسالة الجديدة » منذ صدورها سنة ١٩٥٣ حتى احتجبت سنة ١٩٥٨ .
- عندما انتقلت ملكية الصحافة الى الشعب سنة ١٩٦٠ عين عضوا منتدبا لمؤسسة « روزاليوسف » ، وهو الآن يكتب بمجلتى «صباح الخير» و «روزاليوسف» .
- انتج أربعين كتابا فى القصة والاقصوصة والمسرحية .
- متزوج وله ابنة وولد .
- هوايته السباحة والاسكواتش .

يوسف السباعى

أبرز ما فى شخصية « يوسف السباعى » ـ صغيراً كان أو كبيراً ـ وضوح الباطن والانطلاق على الطبيعة . ويبدو لنا ذلك واضحاً فى إنتاجه الأدبى ، فهو يحدثنا فى قصصه عن حياته ، وعمن أحاط به من الناس والأشياء حديثاً صريحاً صادقاً لا تكلف فيه ولا خشية .

ولذلك لن نجد صعوبة فى تبين معالم طفولته من أدبه ، وقد تحدثت معه طويلا ، وسألته عن ذكرياته الأولى فأفاض فى الحديث ، ولكن أكثر ماقاله قرأته قبل ذلك فى قصصه .

حتى كنت أقول له :

ـــ أليس هذا ما ذكرته فى قصة كذا ، أو فعله بطل كذا ؟

فيقول :

ـــ تمام . . . بالضبط . . . حياتى فى قصصى .

قلت له :

— حتى البنطلون المرقع من الخلف الذى كان يحمل بطل « ردّ قلبى » على ملازمة الجلوس وقلة الحركة لكيلا ينكشف ؟

— حتى هذا . . . حدَثَ لى !

وهذا هو يضع أصبعنا على معالم حياته الأولى فى قصة « البحث عن جسد » التى صب فى إطارها الخيالى طائفة من الذكريات والمشاعر والنقد والأفكار ، إذ تخيل نفسه روحا صعد بها عزرائيل إلى السماء ، وقد حدث عجز فى المستجدين بالحياة ، إذ زاد عدد المواليد المطلوب إنزالهم إلى الأرض على الأرواح التى تدخل فى أجسامهم ، فاقترح عزرائيل على روح الكاتب أن تعود إلى الحياة الدنيا فى جسد من أجساد أولئك المستجدين ، وترددت الروح بين الرفض والقبول ، وقال الكاتب لعزرائيل فيما قال :

« إنى لا أقبل أن أعود فأحمّل نفسى بمحض إرادتى أثقال الشقاء ، وأكداس التعاسة » ، فرماه عزرائيل بالجمود

وكفران النعمة ، وذكره بما كان فى حياته من أزهار ، فقال له :

— هذه أول أزهار حياتك . . أزهار الطفولة الحلوة الناعمة . أتذكر حياتك وقتذاك ؟ حياة المرح واللعب وخلو البال والتحرر من المسئوليات والأعباء ؟... كنت مخلوقاً مرفها مدللا ! هل نسيت جدتك « نينه أم طه » ؟ ، ونسيت تدليلها لك ورعايتها إياك ، والأقاصيص التى كانت تقضى الساعات الطوال فى قصها عليك ؟ . . . كنت وقتذاك « سوساه » المعزز المكرم !

وشرع الكاتب يسرد ما كان فى حياته من أشواك ، فذكر شخصين كدرا طفولته هما : أم عطية ، وتوفيق أفندى ، فقال لعزرائيل :

— أيها المضلِّل ، لماذا ذكرت أم طه ونسيت أم عطيه ؟! لماذا ذكرت جدتى أم أبى ، ونسيت جدّتى أم أمى ؟ لماذا ذكرت مدللتى ونسيت معذبتى ؟ . . . أنسيت كيف كانت تعتقد أنى حرمت أخى محموداً من اللبن ، لأنى ولدت بعده

بسنة واحدة . . . فأخذتنى — وأنا رضيع — بجريرة حرمانه ... فأحبته وأبغضتنى ، وأعزته وأذلتنى . . . كانت تقول « محمود .. محمود . . بَلا يوسف بَلا يوسف .. » ، كانت تحمل فى قلبها — رحمها الله — حقداً دفيناً .. وسلموا لها أمرى ففرضت نفسها — ديكتاتوراً على طفولتى ، وجعلت منها قطعة عذاب . . .

« أما « توفيق أفندى » فهو مدرس الإنجليزى فى مدرسة « محمد على » الابتدائية ، الذى كان يهوى بسن ّ المسطرة على ظاهر اليد وعلى الأصابع . . ولا أذكر أننى ضربت كثيراً ، ولكن شقائى لم يكن من مجرد الضرب ، بل كان من انتظار الضرب وتوقعه وتذكره ، كأن انتظار البلاء شر ّ من وقوعه ، وكانت حصة الإنجليزى مصدر بلائى وشقوتى . . إن الاحتلال لم يعلمنى كره الإنجليز ، ولكن الذى علمنيه هو « توفيق أفندى » ، لقد جعل الإنجليز واللغة الإنجليزية أكبر أعدائى » .

ولكن عزرائيل يقول :

ـ دعنا من طفولتك البائسة ، ومن «أم عطية» ،و «توفيق

أفندى» ، لننتقل إلى صباك اليافع المورق النضير ، دعنا نجمع هذه الأزهار التى نثرها عليك أبوك ، أوعلى الأصح صديقك وصاحبك ، بل إنى سأضعه هو نفسه فى الكفة . . فهو خير ما أستطيع أن أثقل به كفة سعادتك . . أتتذكر أنه كان بين الآباء نسيج وحده ؟ بل بين الناس أجمعين ؟ »

فيبادر الكاتب مطالباً بأن يوضع ذلك فى كفة الأشواك . . قائلا :

— ما كان أغناك عن أن تذكرنى بهذا . . إنه زهرة حفية بالشوك . انظر إلى مصدر السعادة ، كيف جعله القدر مصدر شقاء ؟ أتذكر عودته إلى الدار ذات يوم ورأسه مثقل ، وجسده منهوك ، وقدماه لا تكادان تحملانه ؟ . . أتذكر كيف رقد على الفراش وراح فى غيبوبة ؟

ولندع الكاتب وعزرائيل وشأنهما . لندعهما يحصيان الأشواك والأزهار فى حياة « يوسف السباعى » الذى كبر بعد ذلك وصارت له اهتمامات كبيرة .. ونعود إلى « يوسف الصغير » أو « سوساه » كما كانت تناديه الجدة المحبة الحبيبة « أم طه » .

ولد « يوسف » سنة ١٩١٧ فى «حارة الروم» بالقاهرة ، ثم انتقلت الأسرة إلى « جنينة قاميش » بحى السيدة زينب ، حيث قضى طفولته الواعية وبعض صباه ، يتنقل ويلهو ويلعب فى شوارعه وحواريه ويتعلم فى كتاتيبه ومدارسه ، وكأنما كان يعدّ نفسه ليكون قصاصاً ، فجال فى : أبو الريش وجنينة قاميش ، وسيدى زينهم ، والماوردى ، وسيدى الحبيبى ، والبغالة ، وحارة السيدة ، وزين العابدين ، والخليج المصرى ، والناصرية ، والمبتديان ، وسيدى العتريس .

جال فى كل هذه الأماكن يتأمل مافيها من ناس وأشياء ، واختزن منها ما اختزن فى طفولته ، ثم أخرجها ـ بعد أن كبر وصار كاتباً ـ صورةً حيةً ناطقةً فى مجموعة «بين أبو الريش وجنينة قاميش » وغيرها حتى روايته « السقّا مات » التى تقع حوادثها بحى الحسينية ، فالحيان متشابهان والخبرة مستمدة من حى السيدة زينب وإنما أراد المؤلف أن ينوع .

وأبناء حى السيدة زينب — وأنا منهم — يعرفون مدى الصدق وبراعة التصوير فى هذه القصص، فهناك ناس

وأماكن وأشياء نعرفهم فى واقع الحى ، نراهم فى القصص مع ما يقتضيه البناء الفنى والسياق الأدبى للمشاعر والأفكار .

وقد تعلم « يوسف » فى « الكتّاب » قبل أن يذهب إلى المدرسة الابتدائية ، وقضى فيه نحو سنة حفظ فيها جزءاً من القرآن ، وعندما انتقل إلى المدرسة الابتدائية دهش من الفرق بينهما فى مقياس النظام والنشاط . .

فقد كان هذا المقياس فى « الكتّاب » هو ارتفاع الصوت الجماعى للصبيان فى شكل « كورس » يصيح بأعلى صوته مردداً : ا . . ب . . إلخ

أو قارئاً منغما لبعض السور الصغيرة من القرآن الكريم ، فإذا فتر الصوت أو انعدم كان هذا دليلا على انعدام النشاط والنظام .

أما فى المدرســـة فالحال على عكس ذلك تماما كما هو معروف .

ونجد تصويراً للكتّاب ، وما يجرى فيه من غرائب وقصص شقاوة الأطفال فى عدة مواضع من قصص « يوسف

السباعى » منها « كتّاب الشيخ كفته » برواية « السقّامات » وكتّاب « الشيخ ككو » بقصة « فى جنينة قاميش » وكتّاب « الاجتهاد » بقصة « فى البغالة »

وفى قصص هذه الكتاتيب يقص علينا بصفة خاصة حوادث شقاوة الأطفال وتفننهم فى أنواع الأذى والسخرية بمشايخ الكتاتيب ، ويصور أولئك المشايخ الذين لم تكن لهم أية وسيلة لتربية الأطفال غير العصا والفلكة واستعمالهما بعنف ، والصبية الذين كانوا ينتقمون منهم انتقاماً ساخراً بالغ الأذى .

وكان « يوسف » طفلا شقياً ، ولكن شقاوته لم تكن من النوع المؤذى ، كان يتعارك مع الأولاد بسبب لعب « البلى » وغيره ، فإذا تمزق جلبابه خاطه بمعاونة أحد أصحابه حتى يخفى آثار المعركة عند عودته إلى المنزل . .

ويخوض الآن « يوسف السباعى » أحياناً بعض المعارك الأدبية ، فتبدو فى كتابته بعض الشقاوة ، ولكنها تتسم بالمسالمة وتشيع فيها الروح الطيبة ، فإذا سخر كان مداعباً . والسخرية المرة لا يستعملها إلا فى وضع عام لا يمس أحداً بذاته .

وأعتقد أن إيغاله فى تصوير شقاوة الأولاد المؤذين فى الكتاتيب إنما هو من قبيل « التعويض النفسى » فإنه لم يشاركهم فيها ، وإن يكن مقتنعاً باستحقاق من تلحقهم ، ورسب هذا الاقتناع فى نفسه حتى فاض على قلمه وهو كاتب .

وقد تردد « يوسف » بين مدارس الحى الثلاث : « وادى النيل » ، و « الكمال » ، و « محمد على » ، وكان تلميذاً عادياً فى المستوى التعليمى ، ولا شك أن استعداده الطبيعى كان يفوق بكثير مدى تحصيله .

فتقصيره ، ورسوبه أحياناً كانا بسبب اللعب ، وقد صوَّر لنا صورة طريفة عن لعبه وانصرافه عن الدراسة فى موضوع « ملحق حساب فى الابتدائية » من كتاب « من حياتى » المعدّ للطبع ... حدثنا عن سروره بخلو مدرسة « وادى النيل » من المدرسين ، وكانت تفتح أبوابها للدراسة الصيفية لأهل الملاحق ، وانشغاله مع زملائه التلاميذ بإسقاط البلح الأخضر من ثلاث نخلات فى فناء المدرسة ، وسروره كذلك عندما كان يذهب بعد الظهر إلى المدرس الخاص ، وهو الأخ

الأكبر لزميل صديق له فلا يجده . . ويزاول مع صديقه مغامراتهما فى البحث عن كنز بالجبل القريب من منزل الصديق أخى المدرس .

وكان يعلل نفسه بأنه بعد العثور على الكنز سيحصل على المال فلايحتاج إلى التوظف ، ولايحتاج بالتالى الى المدرسة والمذاكرة وملحق الحساب ، وبرغم ذلك نجح فى الملحق !

وفى المدرسة الثانوية برز « يوسف » فى اللغة العربية والرسم . كانت رسومه تعرض فى المكان الظاهر من معارض المدرسة ، وكان يأخذ فى الإنشاء العربى عشرة من عشرة ، حتى مل المدرس وضع الدرجة المكررة ، وأهمل تقديره بالدرجات ، لأنه رأى فى منحه الدرجة النهائية ظلماً لغيره ممن يستحقونها وهم فى الوقت نفسه دون مستواه . . . فلو أعطاها له لاضطر إلى خفضها لهم .

ولعلك تدهش من ذلك ، لما شـــاع عن الـكاتب «يوسف السباعى» من عداء للغة العربية ، والواقع أن مايقع فى كتاباته أحياناً من أخطاء نحوية شىء ، وقدرته على التعبير

العربى المبين شىء آخر ، أما الأخطاء فناشئة من سرعته وانطلاقه الذى هو طابعه فى حياته وفى كتابته ، فهو لا يهتم بالوقوف للتنقيح والتصحيح . . ولا أقصد بهذا التعليل تبرير الخطأ ، فهو عيب فى الكتابة ولا شك ، ولكنه تعليل لمصدره ، أما قدرته التعبيرية وأسلوبه العربى القوى المتدفق وطاعة الكلمات لذوقه الفنى فأمور ظاهرة فى كتاباته .

وبرز « يوسف » فى مدرسة « شبرا الثانوية » التى ألحق بها بعد انتقال الأسرة إلى حى روض الفرج . كان رئيس تحرير مجلة المدرسة ، ورئيس جمعية الأدباء بها ، واشتهر فيها بالأدب والرسم .

وكان إلى ذلك يحرر مجلة خاصة يرسلها إلى صديق له ، والصديق يرسل له مجلة خاصة ، وكان من موادها « قصة العدد» التى بدأ بها ـ أو حاول البدء بها ـ فى إنتاجه القصصى .

ونظم فى تلك الفترة شعراً ، ولكنه لم يسترسل فى النظم وإن كان لم ينقطع عن الشعر فى القراءة والكتابة . . ففى رواية « ردّ قلبى » مثلا شعر منثور كثير ، ويخيل إلىّ أن طبيعته المتحررة المنطلقة لم ترض التقيد بالأوزان والقوافى .

ولا شك أن ميوله الأدبية موروثة بالطبيعة وبالممارسة عن والده الأديب الكبير المرحوم محمد السباعى ، وأقصد بالممارسة ما كان من إعجابه بوالده والتفاته إلى ما يكتبه ، وقراءته القصص التى ترجمها ، والقصص التى ألفها ، وكان لصيقاً به ، يقرأ الوالد عليه ما يكتبه قبل أن ينشره ، ويأخذ رأيه فيه . . ثم يأخذ الولد مقال والده أوقصته ويذهب بها إلى جريدة « البلاغ » التى كان يحرر بها « السباعى الكبير » ويعود «يوسف» إلى مطبعة «البلاغ» بعد الظهر ليقف بجانب « الحاج حمزه » رئيس العمال الذى ينزع عدداً من الماكينة ويعطيه لابن المحرر الكبير ، فيأخذ «يوسف» العدد سعيداً بقراءة موضوع أو قصة والده العزيز .

وكانت قراءة « يوسف » لوالده أول قراءة أدبية كبيرة له بعد كتب المدرسة ومجلة الأولاد . كان يقرأ لأبيه بحب أبوى وحب أدبى ، ثم جره الحب الثانى إلى القراءة لغيره من الأساتذة المعاصرين .

وطبيعة التحرر والانطلاق والمرح ورثها « يوسف » عن

والده ، ونمت فيه بالملازمة والصداقة . كان «السباعى الكبير» و «السباعى الصغير» صديقين حميمين .. وكانت الكلفة التى تكون عادةً بين الأب والابن مرفوعة بينهما .

كان «السباعى الكبير» رجلا طبيعياً مرحاً ، يأخذ الأمور مأخذاً سهلا ، ولا يرى فى الحياة مايستحق المعاناة التى يتكبدها أكثر الناس ، أما الوالدة فكانت على عكس زوجها ؛ كانت تميل إلى الشدة والصرامة .. كان الوالد يقول لصغيره :

— كفى مذاكرةً ، فإن مذاكرتك هذه تكفى لأن تنجح فى الجامعة ، فلا تتعب نفسك هكذا !!

أما الأم فكانت تحبس «يوسف» وأخويه فى الحجرة ليذاكروا .. ويجىء الأب فيجد الباب مغلقاً عليهم فيأتى بالسلم ويصعد عليه وينظر إليهم من الشراعة ، ويكلمهم ... ويضاحكهم .

وهذا من قبيل ما يروى عن «السباعى الكبير» من شذوذ العباقرة !!

وعند ما رسب « يوسف » فى الامتحان وعاد الأب إلى المنزل سأل عن « يوسف » ليكافئه .. ويسرى عنه ، وكان أخوه « محمود » قد نجح فلم يهتم به الوالد ..

فدهشت الأم لذلك ؛ فقال لها :

— الناجح تكفيه فرحة النجاح ، أما الراسب فهو أحق بالعزاء .

على أن مرح « يوسف » الطفل لم يكن منطلقاً مع طبيعته ، فقد كان حزم الأم وشدتها يقيدانه ويكبتانه ، تضاف إلى ذلك قسوة الجدة أم الأم ، وكانت تشارك فى معاملته بالشدة وفرض السلطان عليه ، كانت تسافر إلى « البلد » فيعد الصغير سفرها عيداً ثم تعود محملة بخيرات الريف من فطائر ودجاج وغيرها ، فلا يسيل لعابه كأى طفل ، بل على العكس يحزن ويعد عودتها مصيبة وبلاء ، وإذا عادت وعلمت أنه عند جدته « أم طه » أسرعت فى استدعائه ، فينتقل من النعيم إلى الجحيم !!

وترى صورة الجدة « أم طه » منعكسة فى رواية

« السقّا مات » على شخصية « أم آمنة » جدة « سيد » بطل الرواية فقد أسهب المؤلف وتفنن فى تصوير حب الجدة لحفيدها ابن ابنها .

فذات مرة أحضر ابنها « أبو سيد » لفافة وأعطاها لابنه « سيد » وقال له : « دول فطيرتين لك أنت وستك .. واحدة بالزيت وواحدة بالسمن ! » وقال الصبى لجدته :

— أنا حاخد أم زيت

— خد اللى تعجبك

— تحبى أم سمن ؟

— كله كويس .. اللى يعجبك خده

وجعل يحاورها متردداً بين الفطيرتين حتى قال لها :

— خلاص خدى دى .. أنا حاخد أم سمن .

وأتى « سيد » على معظم فطيرته ولم يبق منها سوى قطعة تبلغ الربع ، وكانت العجوز تتلكأ فى تناول فطيرتها .. تلوك ما تقضم ببطء .. وصاح بها الصغير .

— مش عايزه تدوقى الفطيره أم سمن ؟ تاخدى حته وتجيبى حته ؟

ولم تكن قد أكلت إلا قطعة لا تزيد على الربع ، إذ كانت تتعمد البطء ، وتستعد للخطة التى كانت تعلم أن حفيدها سيدبرها فى نفسه .

ولمحه أبوه وهو يقضم فطيرة جدته ، فصاح به مؤنباً :

— أنا قلت إيه يا سيد ؟ مش قلت كلْ فطيرة واحدة؟

— وأنا مالى . . ما هى هيه اللى عايزة تبادل !

وضحكت الجدة وقالت :

— يا أخويا سيبه . . دا اللى فى بطنه بيشبعنى أكثر من اللى فى بطنى !

ونلاحظ بعض التشابه بين « سيد » وبين « يوسف » فى طفولتهما ، بالرغم من أن الأول سقا ابن سقا ، والثانى ابن الأستاذ الكبير محمد السباعى . . فالخامة الإنسانية واحدة . . ولكن الظروف وعوامل البيئة تشكل كلا بشكله . .

أعطى الكاتب لسيد من « يوسف الصبى » خفة الظل والمرح والشعور بالمسئولية وشقاوة الأولاد البريئة ، وقد فلسف تصرفاته الشقية فلسفة إنسان خيِّر .. كأنه يدافع عن نفسه ..

* * *

وكانت الأسرة متوسطة الحال ، على شيء من السعة فى حياة الوالد ، سعة الطبقة المتوسطة ، وكانت الأم إبنة تاجر فى المنصورة ، والأب إبن تاجر فى الغورية ، ولم يكن فى البيت تعاون طبقى كبير ، كل أهله يشعرون بالكرامة والمساواة ، فكان أفراد الأسرة يعتبرون الخادم كواحد منهم لا يشعر معهم بحرمانه من شيء يستمتعون به ، ولا بسيادة يفرضونها عليه .

ويصور لنا «يوسف» هذا الجو فى قصة «فى جنينة قاميش» التى بطلها الخادم « جودة » ، وكان مقارباً ليوسف وأخويه فى السن ، فكانوا يلعبون معه كأنه واحد منهم ، وعندما ذهبوا إلى « الكتّاب » ذهب معهم تلميذاً مثلهم ، وكان هذا الخادم مغامراً جريئاً يقص أنباء حوادثه على الأولاد ،

وكانوا يصغون إليه فى شوق واهتمام ، حتى كانوا يدخلون إليه فى المطبخ ويعاونونه فى أعمال البيت حتى يفرغ سريعاً ويجلس ليحكى لهم . . .

وظلت حياة « يوسف » فى صغره تتأرجح بين الشقاء والسعادة ، وكانت أهم مصادر السعادة والحب والإعجاب المتبادل بين « السباعى الكبير » و « السباعى الصغير » تتمثل من جانب « الصغير » فى تقديره لصفات « الكبير » الشخصية والأدبية وتتمثل من جانب « الكبير » فى تقديره لصفات « الصغير » الشخصية وما يتوسم أن يكون عليه « الصغير » فى المستقبل .

رآه يوما يجلس إزاء والدته واضعاً رجلا على رجل ، غير عابىء بأوامرها وتهديداتها ، فبدلا من أن يقول له « عيب يا ولد .. نزِّل رجلك » أعرب عن إعجابه بهذا الوضع الذى يدل على قوة الشخصية والاستهانة بالمستبد ، وقال إنه سيكون وزيراً ، وأبدت الأم استياءها من تشجيعه على « قلة الأدب » وسخرت من نبوءته الخيالية .

حتى توفى الوالد العزيز . . فدخلت الأسرة ، ودخل

«يوسف» فى حالة جديدة من الحزن والضيق . حزن «يوسف» لوفاة والده أشد الحزن ، مشى فى جنازته وهو يستشعر شيئاً من السكينة بعد أن أذهلته الفاجعة . وأحس أنه سائر فى صحبة أبيه ، وأن الفرقة لم تحدث بعد كما يحدثنا فى قصة : « البحث عن جسد » ، وقد ظل بعد ذلك مدةً يتخيل أباه حياً ، لا يراه فى منامه فقط ، بل يتمثله فى يقظته ، ويحدثه ويسأله أحياناً عن شئون الدنيا ، وأحياناً عن أمور الآخرة !

وأعتقد أن استغراقه فى هذا الخيال جعل صور الموت والحساب ، وعزرائيل ، والجنة والنار ، تستكن فى أعماقه ، حتى أوحت إليه شكلا جديداً من القصص ، فكتب « نائب عزرائيل » و « البحث عن جسد » وبضع قصص قصيرة ، واتخذ هذا الشكل إطاراً لنقد كثير من نواحى الحياة السياسية والاجتماعية ، كما اتخذ شكل الخيال الأسطورى متأثراً بحكايات جدته ، فى ذلك النقد .

وقد بث « يوسف » مشاعره وصور حزنه على وفاة والده ، فى نفس « سعيد » عند ما مات والده « السقا » . وأذكر بصفة خاصة هذه الصورة :

« كان المعلم «شوشة» السقا قد اشتغل « حانوتياً » من نوع « الأفندية » الذين يسيرون أمام الجنازات وبأيديهم المجامر والقماقم ، وفزع « سيد » من اشتغال أبيه بهذه المهنة ، وأثر عليه حتى عدل عنها . ولما مات المعلم «شوشه» وخرجت جنازته سار ابنه «سيد» فى تشييعها وقد لبس البدلة السوداء .. بدلة الأفندية حملة القماقم . . التى كان يرتديها أبوه أمام الجنائز . . كما لبس الطربوش الذى كان يلبسه على البدلة . . . »

وقد فعل « يوسف » مثل ذلك ، فلبس طربوش والده فى تشييع جنازته .

شعرت الأسرة بالضيق بعد وفاة عائلها ، ولكنها ظلت محتفظة بمظهرها ومقوماتها الضرورية ، وأصرت الأم على إتمام تعليم الأولاد ... وندع الأم الحازمة تدبر ماتدبر ، ونقصر اهتمامنا على «يوسف» الذى حرم من الكماليات أو ما اعتبروه كماليات ، وفى مقدمتها المصروف الشخصى ، وقد أتم دراسته الثانوية ودراسته بالمدرسة الحربية فى هذه الحال الضيقة ، وقد صوّر هذا كله فى قصة «رد قلبى» ومثّل هو فيها شخصية «على» ووضع أخاه « محمود » ضابط البوليس فى دور « حسين » .

أحب « على » إحدى الأميرات ، ونشأ هذا الحب وهو صغير ، وكان الصراع فى نفسه بين مظهره الفقير وبنطلونه المرقع مما يخجله أمام الأميرة ، وبين عزة نفسه التى ترفعه عن واقعه ، بل ترفع واقعته ، فلا يعترف بهسببا للضعة والمهانة .

ذلك الصراع عاناه « يوسف » فى تلك الفترة من حياته : كان يحتفظ بمظهره الخارجى على مستوى مقبول ، ولكنه كان يعانى أشد العناء من عدم استطاعته الظهور فى المجالات التى تتطلب « الدفع » وليس معه نقود . . فكان يتجنب هذه المواقع و « يزوغ » منها ما استطاع ، ولم يكن يضايقه شىء مثل أن يدفع له أحد ، لأنه ينفر من استعلاء الدافعين ، فكان الصراع هنا يبين الشعور بالحاجة الحقيقية ويبين الحرص على المستوى اللائق الكريم .

ذلك الضيق ، وهذا الصراع بعد وفاة الوالد ، وشدة الوالدة وقسوة الجدة ومسطرة المعلم : هذه كلها كانت أهم الأشواك فى طفولة « يوسف » وصباه .

وقد كانت عوامل كبت وقيوداً منعته من الانطلاق

فى حياته الشخصية على نحو ما كان والده ، وهو على مرحه وطبيعته ووضوح شخصيته يميل إلى التحرز والتحفظ أمام الأشخاص الذين لم يألفهم ، وكثيراً ما يصطنع الرسميات فى واقعه ، ولكنه فى أدبه ينطلق على طبعه الأصيل المتحرر ، لا يعبأ بشىء ولا يهتم إلا بأن ينفض ذات نفسه على الورق ، وطالما عجبت لأمره . . من حيث الصراحة والإفاضة التى يتناول بهما الشئون السياسية والحزبية فى « أرض النفاق » و « وراء الستار » و « يا أمة ضحكت ... » وغيرها .. كيف لم تقع عليه عين القائمين بالحكم فى تلك العهود فينالوه بالشر والاضطهاد وهو ضابط فى الجيش ؟ لعل السكوت عنه راجع إلى سياقه الفكاهى الذى يلطف وقع النقد ، ولعله راجع إلى أن أحداً لم يكن يلتفت إلى أن القصص تتناول هذه الشئون . ومما يعزز هذا التفسير أن المؤلفات وسائر الكتابات العصرية عن الثورة لم تكن تدخل العراق فى العهد الرجعى الاستعمارى ، ولكن «رد قلبى» ـ قصة ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ ـ دخلت العراق فى ذلك العهد ولم تلتفت إليها عيون الطغاة .

وكان « سوساه » طفلا خجولا . . كان فى السادسة من عمره عند ما أحب امرأة . . كانت سيدة متزوجة تتردد على منزلهم ، وكان يشعر نحوها بميل غريب . . كان يشعر بمنتهى السعادة عند ما يراها ، وكان يصغى إليها إذا تحدثت فيحس كأنه يستمع إلى غناء جميل ، وكان أعظم ما يتمنى ألا تنصرف . . وبطبيعة الحال لم تكن هى تحس مشاعره .

وأحب بعد أن صار ولداً من فتيان الحى « ملكة » الشقراء الفاتنة بجنينة قاميش التى أحبها ثلاثة ـباع صبية الحى . . والتى أصبحت بعد ذلك نموذجاً دائماً لبطلات قصصه ، وكان « يوسف » واحداً من أولاد « الحتة » الذين غزت قلوبهم ، ولكنه كان على طبعه الخجول ينظر ويحب من جانبه ولا يتقدم نحو المحبوب !

وأحب «يوسف» فى صباه غير فاتنة الحىّ تلك ، ولكن حبه ظل خجولا ملتزماً جانبه الواحد ، وقد صوّر الحب الانطوائى أروع تصوير فى « رد قلبى » ، صوّر خجل الصبى المحب ، وعبّر عن شاعرية حبه وفلسفته فيه أبدع تصوير ،

وأبلغ تعبير ، كان حب « على » للأميرة فى « ردّ قلبى » مجالا كبيراً للتعبير عن عواطف المؤلف وهو صغير ، ثم وهو شاب ، وهو يمثل الجانب الرومانتيكى والانطوائى فيه : وقد مثّل الجانب الإنسانى منه فى موقفه مع الراقصة وعلاقته بها ، تلك العلاقة التى نشأت أولا بدافع العطف ، واستمرت بدافع الرغبة فى التسلية عن فجيعته فى الحب الأول ، ثم انتهت كما بدأت بالعطف عند ما عزم على زواجها ، وكانت هذه الراقصة « كريمة الولد » شخصيةً حقيقيةً عرفها فى أحد مسارح روض الفرج وشعر نحوها بنفس المشاعر التى صوّرها فى القصة ، وكذلك أعطى « حسين » أخا علىّ جانباً آخر من نفسه ، هو جانب المرح والانطلاق ، وهو الجانب الأصيل فى شخصية « يوسف » الذى صنعته الظروف القاسية فى طفولته ، وكان لهذه الظروف تأثيرها الحسن فى تكوين شخصيته من حيث غرس الشعور بالمسئولية فى نفسه ، وإيجاد توازن بين التحرز والانطوائية ، وبين التحرر والانطلاق .

وقد صار « يوسف السباعى » ضابطاً فارساً ، ثم كاتباً

قصصياً ، وصحفياً كبيراً ، أما بذور الكتابة والأدب فى نفسه فأظن أننا كشفنا عنها ، ويبقى الآن السؤال عما اتجه به نحو الحياة العسكرية :

رأى الصبى الصغير ذات يوم فرسان الحرس يتقدمون موكب الملك وعلى رأسهم ضابط قد علا صهوة جواده الأشهب ، مستقيم الجسم ، بارز الصدر ، ممشوق القوام ، يعدو هو وجواده كأنه قطعة واحدة ، ولمح النساء فى النوافذ يتغامزن ويبتسمن . . . يملؤهن إعجاب شديد بالفارس . وتمنى أن يكون مثله فى يوم من الأيام ، وجعله مثله الأعلى ، وجدّ حتى وصل إليه . وقع ذلك ليوسف فعلا ، وقد رواه فى قصة « بصقة على دنياكم » من مجموعة « يا أمة ضحكت ... » ويقول فيها : « ولو خيرت وقتذاك بين أن أكون إلـٰهاً أو أكون ذلك الفارس لفضلت الأخير » .

وبلغ ذلك الأمل ، ولكنه لم يسعد به . . « ولقد خاب أملى ، لا لأنى لم أبلغه ، بل لأنى قد بلغته ، وشتان بين المنظر حين رأيته ، وعندما بلغته » .

وأرى أن تلك الخيبة قد حسرت أبخرة المنظر الجذاب عن المثل الأعلى الحقيق الراسب فى الأعماق ، وهو الأدب ، فبدأ يكتب بعد أن شغلته الحياة العسكرية البراقة الأولى عن هوايته الأصيلة التى بدأها وهو طالب ثانوى ، وعمل حتى وصل إلى مثله الأعلى فى الأدب ؛ والأدب هو الشىء الوحيد فى الحياة الذى يبلغه الإنسان « الأديب » فلا يجده سراباً ! !



محتويات العدد

صفحة

طبع بمطبعة العالم العربى
٢٣ شارع الظاهر ـ القاهرة
تليفون ٩٠٦٧٠٦



عباس خضر

- عمره ٥٣ سنة
- تخرج فى دار العلوم سنة ١٩٤٠
- اشتغل بالتدريس فى المدارس الثانوية ثم نقل الى وظائف ثقافية أخرى بوزارة التربية ووزارة الثقافة حتى عين مديرا لادارة السجل الثقافى بوزارة الثقافة ٠
- حصل على منحة تفرغ الأدباء من وزارة الثقافة لمدة سنة من فبراير سنة ١٩٦٣ لكى يعد بحثا عن نشأة القصة القصيرة فى مصر وتطورها ٠
- اشتغل بالصحافة فى مجلتى «الرسالة» و « الرسالة الجديدة » وجريدتى « الأهرام » و « الأخبار » ٠ وكان عمله بالصحافة فى مجال الأدب والنقد ٠
- عين سنة ١٩٦٣ عضوا بلجنة النشر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ٠

الثمن ٢٥ قرشاً